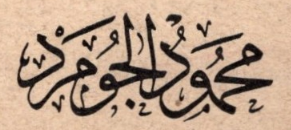
إنسان الحضارة

في القرآن الكريم

تاليف



الطبعة الاولى

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

مطبعة المعارف - بغداد

١٩٨٢



تأليف

محمود الجومرد

الطبعة الأولى

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

مطبعة المعارف - بغداد
١٩٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

ألحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله !

وبعد ، فقد قال لي صاحبي !

ان الحديث عن الدين والقِيَم الروحية والأنسانية والخلقية في هذه الأيام ، لاقيمة له ولا أثر في نفوس الناس كما كان في ألماضي ، لأن الناس قد استعبدتهم ألمادة وأستهوتهم الآلة ، وأدهشتهم ألمخترعات والمكتشفات ، وألهتهم مُتَعُ الدنيا وشهواتها ، وأشغلهم الصراع في سبيل العيش حتى فقدوا الوعي ، وقد تطورت الدنيا تطوراً سريعاً لم ترَ مثله البشرية في كل عصورها . لذلك فحديثكم عن هذه القِيم لا يُرجع لكم صوتاً ولا صدى .

هذان رجلان يقفان في حلقة الملاكمة فيتضاربان ، وفي بضع دقائق يحصل كل منهما على مئات الألوف أو الملايين أحياناً من العُملة النادرة . وهؤلاء العلماء يعيشون أياماً وليالي في دراساتهم وبحوثهم ومختبراتهم ، لايهتمون بمتعة من مُتَع الدنيا ، بل جلّ همهم البحث والتجربة وخدمة العلم والأنسانية ، ومع ذلك لايحصلون الاّ على جزء يسير يسد حاجاتهم القليلة انْ أستطاع .

وهذا المغنّي ـ يصنعون له الكلام واللحن ـ يصرخ ويصيح ولا يدري مايحكي ويقول ، تحيطه الأضواء من كل جانب ويربح المال والثراء ، وينعم في بحبوحة من العيش ، وتصفق له الأكُفّ حتى تتقطع ، وهو في كل صحيفة وعلى كل لسان ، واذا مات ناحت ألدنيا عليه وأعادت ذكراه وسائل الأعلام في كل عام • وهذا عالم زاهد مفكر مغمور راهب في صومعته لايعرفه أحد ، واذا مات ذهب مع الذاهبين كأنْ لم يكن في هذه الدنيا •

فهل تريدون أن تتحدثوا عن الدين والقيم الروحية والأنسانية والخلقية في هذه الأيام ومع هؤلاء الناس ؟

قلت لصاحبي !

هَوِّنْ عليك ! أنت تريد أن يكون الناس ملائكة أطهاراً وأن تصبّهم بالقالب الذي تريد ، وتجعل حياة الناس كما تشاء وتهوى • ان حكمة الخالق العظيم جعلت الناس متفاوتين في أذواقهم ومواهبهم ومداركهم، فيهم العالم والجاهل ، والعاقل والمجنون ، والذكي والأبله ، والطيب والخبيث والأعمى والبصير،والمؤمن والكافر ، الى غير ذلك من الأختلاف والتفاوت فيما بينهم ، وبجانب هذا خلق الخير والشر • وبدون هذا الأختلاف والتفاوت والخير والشر لايسير الكون ولا يعمر ، بل تتوقف الحياة ويزول كل شيء •

ان وجود الأضداد من النواميس أللازمة للخليقة • ان الله قد وضع في كل شيء بذرة لضده ، ففي الحياة بذرة الموت وفي الخير بذرة الشر ، وفي العدل بذرة الظلم وفي الجمال بذرة القبح وفي الليل بذرة الفجر • وفي العالم الطبيعي كهارب موجبة وأخرى سالبة تحفظ بناء الذرة الواحدة ،

وفي الدقائق المادية قوتا جَذْب ودَفْع ، وفي البحار والمحيطات مدٌ وجزر ، وكل فضيلة في بذرتها رذيلة ، ومصائبُ قوم عند قوم فوائدُ وفي الكهرباء سلكان : حار وبارد وبدونهما لايكون ضوء ولا حرارة ، وخلق الملك الرحيم والشيطان الرجيم ،

أرأيت ياصاحبي !

كيف أن الخالق لم يترك شيئاً للفوضى بل جعل لكل شيء ضده ؟ ومن يدري مافي الخليقة من أسرار وأسرار ؟ وحياتنا هذه : حلوة مرة ، لذيذة كريهة ، فاتنة فظيعة ، وانها كل شيء وفيها كل الألوان والطعوم ، والدنيا كدار للضيافة نأتي اليها ثم نروح ؟

وما على الأنسان الا أن يكافح ، وأن يميز بين الأضداد ، فيهتم بصحته لئلا يمرض، ويتعلم ويتثقف لئلا يعميه الجهل، ويعدل ويدعو الى العدل لكي لايسود الظلم ، ويضع لنفسه قيماً خلقية ليبتعد عن التفاهات والمفاسد ، ويقتصد من المال حذراً من الفقر • هذه وغيرها كثير هي من واجباته ومسؤولياته ، وقد زوّده الخالق بالعقل وبغرائز ومواهب تعينه على التمييز بين الأضداد •

◉ مَن عمل صالحاً فلنفسه ومَن أساءَ فعليها وما ربّك بظلاّم للعبيد •

وأنت ياصاحبي !

مايدريك أن هذا العالم في دراساته وبحوثه ومختبره ، والمفكر الراهب في صومعته هما من أسعد الناس ، وأن الملاكم الذي يجمع الألوف أو الملايين ، والمغني الذي تصفق وتتقطع له الأكف هما من أشقى الناس ؟

ان سعادة الأنسان وشقائه هما بذرتان في داخلـه ، لافي المـال ولا في الجاه أو الشهرة والسلطان • وأرجو أن لا تستغرب اذا قلت لك : ان هذه كلها تسبب شقاء وعناء الأنسان وتسلبه سعادته وأطمئنانه ونعيمه في الحيـاة لما فيها من أشواك ومتاعب ومصاعب •

أما العلماء ورجال الفكر فقد ابتعدوا عن الحيأة المادية الى الحيـــاة العقلية والروحية ، وهـم يعيشون بعقولهم وأرواحهم أكثر مـن عيشـهم بأجسامهم • وهـؤلاء طبقة خاصة مـن البشـر ، وسعادتهم هـي السعادة الحقيقية التي يحصلون عليها بما ينتجونه من علـم ومعرفـة أو بحـث أو اختراع أو اكتشاف يقدمونه لخدمة أخيهم الأنسان •

ونحن اذا كنا نتحدث عن الأنسان ، فانما نتحدث عن داخله وجوهره والبذرة التي فيه وفي تكوينه لنفسه ، وهذا أثمن ما في الأنسان ، لأنه بهـا يدرك ويعـي ويحقق رسالته التـي خلقه الله مـن أجلهـا ، وجعله خليفته في أرضـــــه •

ولو لم تكن للأنسان رسالة في الحياة لخلقه الله ضفدعة أو فأرة أو جـــــرادة !!

وفي حديثنا مع أبناء هذا العصر ، علينا أن نتكلم بلغة العصر وبعقليـة العصر وبأسلوبه في حدود كتاب الله وسنة رسوله ، وهي حدود لا نهايـــة لها ، شاملة كل ماينفع الناس في كل عصر ، وأن نذكـر لهـم مايـدور في عالمنا هذا ودنيانا هذه من آراء وأفكار من الشرق والغرب بكل وضوح ، لئلا نحصر أنفسنا في غرفة مغلقة مسدودة النوافذ • والمفكرون من رجـال الغرب هم بشر مثلنا خلقهم الله وأعطاهم ما أعطانا من نعمة العقل والألهام

وعلينا أن نعرف مايدور في رؤوسهم ومجتمعاتهم من أفكار ومعتقدات وآراء وخير وشر •

ومن واجبنا أن لا نتعرض في حديثنا لأية عقيدة أو مذهب أو دين ، وقد كفانا ماحدث في الماضي ، بل نخاطب عقل الأنسان وقلبه ، لأن العقل - وهو جوهر الانسان - يميز بين الأسود والأبيض ويبعث الأفكار ، والقلب هو الذي يقوي الأفكار ويرسخها ، وعقلاء الناس كلهم من طينة واحدة •

وأنت ياصاحبي !!

اذا كنت ترى أن الحديث عن القضايا الدينية والروحية في هذه الأيام هو [رجعيّة وجمود] كما يقول بعض الناس ، فلا بأس عليك !

وأود أن أشرح لك معنى الرجعية ، فالرجعية معناها التمسك بالقديم الخطأ والجمود عليه على الرغم من ظهور الصواب ، أما البحث في القيم الروحية الصحيحة المبنية على الفهم والأدراك والدراسة والبحث العلمي ، فهو أمر جديد في كل زمان وتقبله كل العقول المفتوحة ، وهو القوة المضادة الصائبة الثابتة التي تحفظ التوازن في المجتمع اذا ما ظهرت قوة جديدة خاطئة خطيرة ، ليسير المجتمع بخطوات متعادلة وتدريجية ، وفي كل شيء بذرة لضده •

والمجتمع الذي يتمسك بالتقاليد الصحيحة النافعة الموروثة ، والمبادىء الروحية المبنية على الفكر والعلم والأدراك والفهم ، يعيش متماسكاً كالبنيان المرصوص ولا يخشى الكوارث والهزات •

وهذا التقدم الذي يزعمونه ، سيدمّر حياة الأنسان انْ لم تشدّه

من ورائه قوة مضادة راسخة ثابتة ، تنبهه وتحذره وتوعيه ، فكيف اذا كانت هذه القوة صالحة لكل انسان ولكل زمان ؟؟

وقد أثبت العلماء بعد دراسات كثيرة وعديدة للأقوام البدائية في أواسط أفريقيا وأمريكا أللاتينية وجنوب شرق آسيا ، وبينهم من أكلَة لحوم البشر ، أثبتوا أن كل نظام يسود هذه الأقوام ، مهما كان بدائياً غريباً ، فهو يرتكز على فكرة دينية • وهم في واقعهم من أشد شعوب الأرض تديناً ، على عكس ماكان يظنه بعض الناس ، وهذا ما سيجده القاريء عند حديثي عنهم في هذا الكتاب •

وليس في هذا أية غرابة ، فالأنسان يحيا بروحه ، والروح من صُنْع الله الواحد الأحد ، وهي دائمة الأتصال بخالقها لأنها جزء منه ، سواء أشعر الأنسان أم لم يشعر ، في اليقظة أو في المنام • ولعل أكثر الناس شعوراً بذلك هم الذين سلمت فطرتهم وروحهم من الكدر ، ولم تعبث بهما شرور الدنيا ، لهذا فمن واجبنا أن نهتم بهذا الأتصال الروحي لنشعر بسعادة الحياة ، ونعي رسالتنا التي خلقنا من أجلها •

والأنسان مخلوق محتاج الى مُعْتَقَد يهدي فكره وأعماله ، وهذا الشعور الديني لايمكن التعبير عنه ولا تقوم مقامه فلسفة ولا علم •

والمعتقَدات كما يقول بعض المفكرين هي التي تقود الأمم ، وان ضعفت في نظر العقل أحياناً ، وهي التي تمنع الناس من الوقوع في همجيّة وفوضى لا رابطة بين أفرادها ولا قوة فيها •

والأسلام دين حضارة اذا رجعنا الى مصدره (القرآن الكريم)

لأن الحضارة[1] الحقيقية التي تدوم وتعمر وتُسعد الأنسان هـي المبنية علـى الأيمان والفكـر والعلـم والعمل ، ومن هـذه الأركـان الأربعـة يصدر كل ما تشمل عليه كلمـة الحضـارة ، مهما اختلف المفكـرون في تفسيرها وتعريفها في كل عصر [وما ألدين الا ايمان القلب وما العلـم الا ايمان العقل ، ولو اجتمع القلب والعقل لكان للأنسانية شأن آخر] •

والاسلام في حقيقته ايمان وفكر وعلم وعمـل ، وهـذا ما سيجده القاريء في حديثي عن كل ركن من هذه الأركان الأربعة ، وما سأذكره من الآيات العديدة التـي تبحث عنـه ، لئـلا نضل الطريق ونبتعـد عـن الصواب ، ولو اتبعناها لكانت الحضارة غير ماهي عليه •

والأنسان الذي يؤمن ويفكر ويتعلم ويعمل ، ويفتح عقله وقلبـه للحياة ولا يتزمّت ، هو انسان الحضارة الذي يريده الأسلام ، وهـو الذي تتغلغل هذه الأركان في دمه ولحمه ، لا في المظاهر والترف والثروة والنعيم • وقد أكد القرآن الكريم على كل هذا مرات ومرات •

---

(١) للحضارة تعاريف كثيرة ، وأول من حاول تعريفها علمياً حديثـاً هو العالم الالماني كوستاف كلم Klemm ١٨٦٧ ويقول [انهـا العادات والمعلومات والمهارات والحياة الخاصة والعامة في السـلم والحرب والدين والعلم والفن وتتمثل الحضـارة في نقـل تجـارب الماضي للجيل الجديد] وبعده جاء العالم الانكليزي السير أدورد تايلر Tylor ١٩١٧ فعرفها تعريفه المشهور الذي لايزال مقبولا الى الان وهو [الحضارة هي ذلك ألكم المركب الذي يحتوي علـى المعلومات والمعتقدات والفنون والقيم والقوانين والتقاليـد وجميـع القابليات والعادات التي يكتسبها الانسان بصفته عضواً في مجتمع] أما المدنية فالمتفق عليه أنها درجة من الحضارة •
من كتاب : الانسان في المرآة ص ٧١

فقد جاءت كلمة (الأيمان) وما يُشْتَقُ[2] منها في ٥١٣[3] آية •

وكلمة (العقل) وما يشتق منها في ٤٨ آية •

وكلمة (الفكر) وما يشتق منها في ١٨ آية •

والعلم وما يشتق منه في ٤٤٦ آية •

والعمل وما يشتق منه في ٣٥٩ آية •

وأقترن الأيمان بالعمل الصالح في ٧٣ آية •

والحق في ٢٤٧ آية •

والقلب في ١٤٥ آيـــة •

والصبر وما يشتق منه في ١٠٣ آية •

والعدل والقِسْط وما يشتق منهما في ٥٣ آية •

والسماء في ١٢٠ آية وقد جاءت لتذكر الأنسان بما أبدع الخالق فيها•

والسماوات والأرض في ١٩٠ آية وهي تدعو للتفكير بهما في معظم الآيــــات •

وكلمتا : آية وآيات ، جاءتا للدلالة على الاحوال المختلفة للتوعيـة والتأمل وتنبيه الفكر في ٣٨٢ آية •

---

(٢) جملة ما يشتق منها ، أعني بها أشتقاق الفعل الماضي والمضارع والامر ، وأسم الفاعل والمفعول والصفة المشبهة وأسم التفضيل من كلمة المصدر (ايمان) وغيره • ومثل هذا أعنيه من كـل جملة (وما يشتق منها) •

(٣) اعتمدت على ضبط عدد هذه الآيات جميعها على كتاب [المعجـــم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم] لواضعه العالم الجليل محمـــد فؤاد عبدالباقي • هذا الرجل الذي قدم خدمة كبيرة لكل باحث عن آيات القرآن وموضعها من السور وأرقامهـا بكل دقـة وعنايـــة وضبط ، جزاه الله خير الجزاء •

وجاء في القرآن ٣٥ مثلاً ، وفي كل مثل صورة أو مقارنة عقلية لتوضيح وتركيز الفكر وجلب الأنتباه •

أفلا يدل هذا التكرار الكثير من الآيات على دعوة القرآن الكريم الى بناء حضارة الأنسان وجَعْلِه انساناً حضارياً يؤدي رسالته ويكون خليفته في أرضه بفضل الأيمان والفكر والعلم والعمل والصبر والحق والعدل والتطلع والتأمل في خلق السماوات والأرض ، والتشريع الذي صان كرامة الأنسان ـ من ذكر وأنثى ـ وحرص على تماسك الأسرة اجتماعياً وأقتصادياً ، والأسرة أقوى صخرة في بناء المجتمع ؟؟

ـ ٢ ـ

ويرى معظم المفكرين أن الرجال الذين صنعوا الحضارات هم ثلاث طوائف : وهي طائفة رجال العمل ، وطائفة رجال الفكر والعلم ، وطائفة رجال ألالهام وهم رجال الدين والأدباء والفنانون • والتعاون بين هذه الطوائف هو الذي يكوّن الحضارة الحقيقية ألتي تدوم وتعمر وتخدم الأنسان في كل زمان ومكان •

لكن بعض الناس مصابون بعمى الألوان والعصبية ، فلا يرون سوى لون واحد ، ويعدونه أساس الحضارة ، بحيث صار المعنيّون بكل طائفة يرون أنهم عماد الحضارة ولا عماد غيرهم • وفي كل العصور تطغى احدى هذه الطوائف الثلاث على تفكير عامة الناس وتشوّه أحكامهم •

وفي هذا العصر طغت الآلة (طائفة رجال العمل) ـ بأستخدام العلم ـ على الفكر والألهام ، فضعفت العقيدة الدينية في كل المذاهب والأديان ، وصار الحديث والتأليف فيما يخص الدين أو القيم الروحية والخلقية ،

لايجد له سامعين أو قارئين الا بين قليل من الناس الذين يشعرون بقيمة الروح والأخلاق ، وصار الجهد الفكري لا يعود على صاحبه الا بالقليل من الشهرة والقليل من الدخل •

وصرح الحضارة لايقوم على عمود واحد ، ولا تسنده طائفة واحدة، بل لابد من اتحاد الطوائف الثلاث وتعاونها لتكتمل الحضارة وتدوم • وأداة العمل وحدها تستعبد الأنسان مالم يكن بجانبها قيم روحية وفكر يعمل وينتج ويهذب ويثقف •

لذلك صار المفكرون الحريصون على الأنسان وسعادته وحضارته في الغرب مركز الآلة الصناعية ، ينادون بأعلى أصواتهم بخطورة الآلة والأكتشافات والأختراعات الحديثة وتهالك الناس عليها وأستعبادها لهم ، وخسارتهم لأنفسهم التي هي أثمن شيء في الوجود •

والأنسان اذا أنسدت نوافذ عقله وقلبه ، وقاس الأمور بالدرهم والدينار والذهب والتمتع والرفاه في العيش ، صار عنده كل القيم الروحية والأنسانية والخلقية والعلمية تافهاً لا قيمة له ولا وزن •

وهذا الفراغ الروحي والفكري هو أساس شقاء انسان هذا العصر•

ولهذا أخذ المفكرون يحذرون الأنسان الغربي من الرجوع الى البربرية اذا ما أستمرت الحال على ماهي عليه ، ويرون أن أرقى الأمم الصناعية في هذا العصر هي أسرعها الى الأنحطاط والتدهور والرجوع الى البربرية ، ولهم في كل هذا كتب وتآليف كثيرة •

وسيجد القاريء كل ماذكرته واضحاً وصريحاً في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال الأمام علي عليه السلام وبعض رجال الدين

من المسلمين وغيرهم ،وآراء المفكرين والفلاسفة وعلماء النفس الذين لآرائهم وزن وقيمة •

والآيات القرآنية هي معالم أو [لافتات] على مفترق طرق الحياة تقول للناس : من هنا الطريق ، أو أنتبهوا أو أحذروا الخطر • فمن أراد السير والهداية والنجاة من متاهات الحياة ومخاطرها ، فعليه أن يقرأ مافيها ويعمل لئلا يتيه ويضل سواء السبيل •

وقد جعلت كتابي هذا في سبعة أقسام وهي :

١ ـ الانسان

٢ ـ الأنسان والفكر

٣ ـ الأنسان والأيمان •

٤ ـ الأنسان والعلم •

٥ ـ الأنسان والعمل

٦ ـ الأنسان والدنيا •

٧ ـ نحن والقرآن الكريم •

وفي رأيي أن تركيب الشيء وتقسيمه ومعرفة دقائقه وأجزائه وما فيها من ايجاب وسلب ، هو أضمن وأشمل وأوضح للفكرة مما لو كانت مجموعة شاملة تتداخل فيها الأجزاء والآراء •

وقد تعمدت أن أضع في القسم السابع ثلاثة أسئلة تخص القرآن الكريم ، بعد أن تطورت الدنيا وأنتشر التعليم في العالم ، وأصبح خاضعاً لأساليب التربية وعلم النفس لأن السكوت عنها لا مبرّر له في هذه الظروف التي نعيشها ، وهي :

١ ـ هل يجب أن نطلب الى أولادنا ـ من الأطفال والصبيان ـ قراءة القرآن الكريم وهم لايفقهون منه شيئاً ؟ ونقلت رأي العالم الصوفي الزاهد أبي بكر محي‌الدين بن عربي •

٢ ـ هل تبقى بعض كلمات المصحف مرسومه كما رسمها الكاتبون في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ؟ ونقلت رأي ابن خلدون وصوراً كثيرة مما جاءت في المصحف مغايرة لما نكتبها الآن •

٣ ـ لِمَ لا يترجم المسلمون أنفسهم القرآن الكريم الى اللغات الحية ولغات المسلمين الواسعة الأنتشار ؟ وتحدثت عن خطورة قيام غير المسلمين بترجمته الى لغاتهم ، وبينهم من لايؤمن به ، وربما عبثوا بالترجمة عن جهل أو قصد • ويعترف علماء اللغات بأن اللغتين : الصينية والعربية من أصعب لغات العالم •

وذكرت حالة المسلمين الزنوج في أمريكا وفي قارة أفريقيا السوداء ، وبُعدهم عن الاسلام الصحيح بسبب عدم وجود القرآن في لغاتهم وبين أيديهم • وهم نموذج لبعض المسلمين البعيدين عن القرآن في بعض دول العالم الأسلامي • وقد أغمضنا عيوننا عنهم كأنهم ليسوا منا ، وليس من واجبنا دراستهم ومعرفة أحوالهم •

وقد توسعت في الحديث عن المسلمين الزنوج في أفريقيا ، عن قصد ، ليطلع القاريء على حالة الاسلام عندهم ، ولأن الدول الأستعمارية عبثت به وهي تدعو بصراحة الى مجابهته وايقافه عند حدوده لئلا ينتشر فيغزو مناطق نفوذهم ـ كما سيجد القاريء ـ ويرون أن قارة أفريقيا هي [كنز المستقبل] لما فيها من خيرات ، وقد انتقلت من الطور القبلي الى طور التقدم وتحمل المسؤوليات •

ومن هنا كانت (دراسة الأديان) بأوسع معاني الكلمة ـ كما يقول

أحد ألعلماء ـ من أجدى الأساليب الحديثة لأستكمال الكشف عن القارة السوداء ، وبذلك أصبحت [الدراسات الأفريقية شعبة هامة من من شُعَب العلوم الأنسانية في هذا العصر] •

وقد استفاد المستعمرون من هذه الدراسات فوائد لايمكن حصرها ، وهم لا يزالون مراقبين انتشار الأسلام بين الزنوج ، وقد درسوه من جميع جوانبه دراسة دقيقة جداً ، خشية على مصالحهم ، ونحن غافلون لاندري ما يدور حولنا •

والمسلمون لو اهتدوا بنور القرآن وتأملوه وتدبروه وفهموه ، ورجعوا الى مبادىء الأسلام وقضوا على الشوائب والبِدَع الدخيلة عليه ، لكان الأسلام قوة جبارة تقتلع من أمامها كل الفوضى وألمفاسد • وبدون هذا تصبح الحياة الروحية فوضى يبعث بها كل عابث ويتلاعب بها كل لاعب • وهذا من أسباب دعوتنا الى ترجمة القرآن الكريم • والآية ٢٢ من سورة الروم تقول:

◉ ومن آياته خلقُ السماوات والأرض وأختلافُ ألسنتِكم وألوانِكم ، ان في ذلك لآَيات للعالِمين •

فهل ينتبه العالمون ويتدبرون هذه الآية التي خصّهم الله بها ؟

ولعل في هذا الجهد شيئاً مفيداً للقارىء وتذكيراً له وتثبيتاً لما يؤمن به ويعتقد •

وبعد ، فقديماً قالوا : للمجتهد المصيب حسنتان ، وللمخطىء حسنة واحدة اذا خلصت النية •

عسى الله أن يسدد خطانا ، ويعصمنا من الزلل ، ويلهمنا الصواب، انه بعباده لطيف خبير !!

محمود الجومرد

الأهداء

الى الذين يتدبّرون هذه السورة :

والعَصرِ ، انّ الأنسانَ لَفي خُسْرٍ ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ وتواصَوا بالحق وتواصَوا بالصبر !!

آياتٌ في القرآنِ الكريمِ

- أفلا يتدبّرون القرآن أمْ على قلوبٍ أقفالُها ؟

سورة محمد آية ٢٤

- كتابٌ أنزلناه اليك مباركٌ ، ليدّبّروا آياتِه وليتذكَّر أولو الألباب •

سورة ص آية ٢٩

- أفلا يتدبّرون القرآنَ ، ولو كان من عند غيرِ أللهِ لَوجدوا فيـــه اختلافاً كثيراً •

سورة النساء آية ٨٢

الأنسانُ

• الانسان مخلوق من هذه المخلوقات :

◉ وما من دابة في الأرض ولاطائر يطير بجناحية الا أُمم أمثالُكم ، ما فرّطنا[1] في الكتاب من شيء ثم الى ربهم يُحْشَرون •

فدواب الأرض وطيور السماء تولد وتحيا ثم تفنى ، في بعضها كثير من صفات الأنسان وغرائزه وسلوكه وتركيبه • فيها عيون للبصر وآذان لسمع، ومِعَد لهضم الطعام ، وفي كثير منها رئات وقلوب وأكباد وأمعاء ، الى غير ذلكمما يحويه جسم الأنسان • ولهذه المخلوقات غرائز وفنون في بنـاء البيوت ومهارة في صيد الفرائس ، وتراكيب عجيبه غريبة في أجسامها •

فالحية تبيض والطير يبيض ، والخُفّاشة تلد وترضع صغيرها وتحتضنه وتطير به في الليل ، وهي مزودة بجهاز (رادار) عجيب يمكنها مـن ألأحساس بما يعترض سبيلها ، وتنام الخفافيش طول فصل الشتاء وهـي معلّقة من أرجلها •

والعنكبوت حيّر العلماء في أنواعه التي تزيد عن عشرين ألفاً ، وغرائزه في بناء البيوت وعمل الشباك للصيد وأنتقاله من مكان الى آخر بخيوطه التي يتعلق بها ويستخدمها جسوراً لعبوره • ومثل هذه العجيبة دودة الحريـر ومملكة النحل والنمل وطيور السماء ووحوش ألغاب •

---

(١) فرّط في ألشيء ـ قصّر وأظهر العجز فيه •

والحشرات وألوف أنواعها ، بعضها يطير وبعضها يدبّ ، وهي عوالم غامضة لايعلمها الا خالقها • وبعضها يكون غذاء لبعض النبات • فنبات [ورد الشمس] يتخذ من الحشرات غذاء علاوة على غذائه الطبيعي ، فأوراقه تغطيها شعيرات دقيقة حساسة بها مادة لزجة ، وهذه الشعيرات تلتف حول الحشرة ثم يفرز النبات العصارات الهضمية التي تقوم بتحليل جسم الحشرة الرقيق الى مواد يسهل على الأوراق امتصاصها ، وبذلك تكون غذاء له •

وعالم البحار عالم عجيب مدهش غريب ، يدل على عظمة الخالق ، اذا ماشاهد الأنسان بعض مخلوقاته وأطلع على تركيبها وصفاتها وسلوكها وطريقة عيشها وتناسلها وهجرتها • فالحوت تلد وترضع صغيرها ، ومن الأسماك ما يطير وهو (السمك الطيار) وسمك الرعّاد يختزن في جسمه كمية من الكهرباء تكفي لأحداث صدمة شديدة لمن يلمسها • وفي الماء هواء مُذاب لتتنفس منه الحيوانات التي تعيش فيه وأجهزتها التنفسية مُعدة لأخذ الهواء من الماء ، فاذا خرجت منه اختنقت •

وما ذكرناه قطرة من بحر •

◉ قل لو كان البحر مِداداً[٢] لكلمات[٣] ربي لَنفِدَ البحر قبل أن تنفَدَ كلماتُ ربي ولو جئنا بمثله مَدداً •

---

(٢) المـداد ـ بكسر الميم ـ هو مانكتب به

(٣) كلمات الله ، والكلمة والكلمات الخاصة بالخالق وردت في القرآن أكثر من خمس وعشرين مرة بمعان مختلفة • راجع معجم لسان العرب من مادة (كلم) وفيه آراء وتفاسير بعض العلماء في معانيها كما يرونها •

(٤) نفد ـ بكسر الفاء ـ أي انقطع وفني •

● ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام ، والبحرُ يمده من بعده سبعة أبحُر ما نفِدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم •

وكلمات الله : علمه الذي لا حصر له ولا نهاية ، وخَلْقُه الأشياء التي لا حدود لها ، فلو كُتبت هذه وغيرها بمداد بحجم البحور كلها لنفدت البحور ولم تنفد كلمات الخالق العظيم • وللمفسرين آراء في معنى (كلمات الله)(٥) ومنها ما ذكرناه •

فما أعظم الخالق وأبدع المخلوق !

وكل مايجري في هذه العوالم في حدود الغرائز والصفات المحدودة التي لا تستطيع الخروج منها •

والغريزة من عجائب الخالق العظيم ، فهي التي توحي للحيوان بأن يؤدي أعقد الأعمال بخفة ومهارة لامثيل لها ، وهي مزودة في تركيبه ، ولا تحتاج الي تدريب وتفكير • وتختلف غرائز الحيوان عن غريزة الأنسان اختلافاً كبيراً ، فغريزة الحيوان ثابتة محدودة ، وغريزة الأنسان مرنة متغيرة ، ولكل حيوان غرائز ثابتة معينة مميزة لنوعه وهي الوسيلة التي يستعين بها في الحصول على قوته ويدفع الأذى عن نفسه ويعمل على بقاء نوعه •

والأنسان مخلوق له من الذكاء والخيال وأكتساب المعارف والتطور والأبداع واليد ألعجيبة في تركيبها وعملها ، ما لانجده عند سائر المخلوقات ، وقد أودعها الله فيه فأختاره وميزه عن جميع خلقه •

● ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً •

---

(٥) كتاب التفسير الواضح ج١٦ ص١١ ، ج٢١ ص٤٥

وليس للأنسان ميزة يمتاز بها عن سائر المخلوقات كميزة (العقل) الذي يكتشف ويبدع ويطوّر . والذين أستعملوا عقولهم غيروا العالم وطوروه ، فأوجدوا أحرف الكتابة والعلوم والفنون والآداب ، ووضعوا القوانين وأنبتوا النبات وسخّروا الحيوان وأستخرجوا كنوز الأرض وطاروا في الفضاء . وبالعقل اخترع الأنسان اللغات للتفاهم ونقل المعارف ، وبالعقل عرف اللهَ الواحد الأحد .

وقد اختار الله الأنسان وأعطاه هذه النعمة ، وجعله خليفته في الأرض ، وهو يعلم قيمة ما منحه لهذا المخلوق من النعم الكبرى (نعمة العقل) .

● واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة قالوا : أتجعل فيها مَن يُفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نُسبّح بحمدك ونُقدّس لك ؟ قال : اني أعلم ما لاتعلمون .

فالله سبحانه وتعالى يعلم ان في هذا المخلوق بذرة الخير وبذرة الشر ، وبالخير والشر تصلح الدنيا وتعمر ، وبهما تظهر حكمته في اعطائه العقل ليميّز بين الخير والشر والحق والباطل والأبيض والأسود على قدر فهمه وادراكه .

● كل نفسٍ ذائقةُ الموتِ ، ونبْلوكم بالشر والخير فِتْنةً والينا تُرجَعون .

وقد ترددت كلمة (الأنسان) في القرآن الكريم في ٦٧ آية ، يذكره فيها كيف خلقه من الطين .

● ولقد خلقنا الأنسانَ من سُلالة من طين .

وجعله في أحسن تكوين .

● لقد خلقنا الأنسانَ في أحسنِ تقويم .

وعلّمه مالم يكن يعلم ، وميزه على سائر مخلوقاته بالعلم والمعرفة والكتابة .

● اقرأْ بأسم ربك الذي خلقَ ، خلقَ الأنسانَ من علَقٍ (٦) ، اقرأْ وربُّك الأكرمُ الذي علّم بالقلم علَّم الأنسان مالم يعلم .

وأن حقيقة الأنسان هي عمله وسعيه في الحياة الدنيا

● وأنْ ليس للأنسان الا ماسعى وأنّ سعيَهُ سوف يُرى ثم يُجزاه الجزاءَ الأوفى .

وأن الأنسان يطغى ويتجبر اذا ما استغنى أو نال من المال جاها ومن الحكم منزلة وقدرة وسلطاناً .

● كلا ان الأنسانَ ليطغى أنْ رآه استغنى .

وان الأنسان ظلوم كافر بالنعمة .

● وانْ تعدّوا نعمة اللهِ لاتُحصوها ان الأنسانَ لظلومٌ كفّار .

وأن الأنسان كثير الضجر يؤوس قنوط .

● ان الأنسان خُلِق هلُوعاً (٧) ، اذا مسّه الشرُ جَزوعا واذا مسه الخير مَنوعاً الا المصلين .

ويحدثنا القرآن عن النفس .

● ان النفسَ لأمّارةٌ بالسوء .

---

(٦) العلق ـ جمع علقة وهي قطعة دم جامدة

(٧) الهلوع ـ كثير الهلع ـ بفتح اللام ـ والهلع كثرة الضجر والجزع

وعن كثرة جدل الأنسان فيما يدري وما لايدري مع أن الخالق أتـي بكل مثل يفيده ويهديه سواء السبيل ، الا أنه يعرض ويجادل •

● ولقد صَرّفنا في هذا القرآنِ للناس من كل مَثلٍ ، وكان الأنسانُ أكثرَ شيء جَدَلاً •

ثم تذكر الآيات كل مايخطر على بال انسان مفكر يريد ان يعـرف مافي تركيبه وطينته من خير وشر ، لأن الله خلقه ويعلم ماتوسوس بـه نفسه ، ويريده أن يكون صخرة قوية في بناء الحياة الدنيا ، لذلك ذكـر له كل شيء وأعطاه كل شيء •

وجاءت سورة [الأنسان] تشرح للناس وتذكرهم بأنهم لم يكونوا على هذه الأرض قبل دهور وعصور ، وأن الله خلقهم من نُطفة مخلوطة بكل شيء يحتاجونه في حياتهم ليكونوا خلفاءه في الأرض ، وهداهـم السبيل وأعطاهم (العقل) وأرسل لهم الأنبياء والرسل ، لذلك أعـد للضالين عذاباً شديداً ووصف لهم جهنم وصفاً تقشعر له الأبدان ، وأعـد للمؤمنين الأبرار جنات فيها كل مايشتهي الأتقياء المحرومون من متع الدنيا جزاء ايمانهم وأتباعهم طرق الرشاد • وهو يقول :

● هل (٨) أتى على الأنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئا مذكوراً ، انّا خلقنا ألأنسان من نُطفَةَ أَمْشَاجٍ (٩) نَبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً • انّا هديناه السبيل امّا شاكراً وامّا كَفوراً •••••

---

(٨) جاء في كتاب مغني اللبيب لابن هشام أن (هل) تأتي بمعنى (قـد) وذلك مع الفعل ، وبذلك فسر قوله تعالى (هل أتى علـى الانسان حين من الدهر) جماعة من المفسرين أي قد أتى على الانسان حـين من الدهر • ويرى الزمخشري في (الكشاف) أنها بمعنى قد أتى •

(٩) الامشاج : جمع مشج ـ بفتح الميم والشين أو بفتح الميم وسكون الشين ـ وهو ماكان مختلطاً ، أي جعل نطفة الانسان مخلوطة بكل شيء يحتاجه في حياته •

ومن حكمة الخالق العظيم أن يجعل الناس مختلفين متفرقين في نواحي الأرض ، ومختلفين متفاوتين في تطورهم ومعاشهم ولغاتهم وخصائصهم وعقولهم وعقائدهم ، ودرجة تقواهم ورشادهم ، وأتباعهم الهدى والعمل الصالح ليسيرألكون ويدور دولاب الحياة ، ولوكانوا على هيئة واحدة لتعطل كل شيء •

◉ ولوشاء ربّك لَجعل الناس أُمَّـة واحدة ، ولايزالون مختلفين الا مَن رَحِمَ ربك ولذلك خلقهم •

◉ أهم يقسمون رحمةَ ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضَهم فوق بعض درجات ، ليتّخذ بعضُهم بعضاً سُخْرِيّاً(١٠) ورحمةُ ربك خير مما يجمعون •

◉ كذلك زَيّنّا لكل أمةٍ عملَهم ثم الى ربهم مرجِعُهم فينبئهم بما كانوا يعملون •

◉ ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن اللهَ ذو فضل على العالمين •

ثم ذكّرهم بأن أكرم الناس عنده هم المؤمنون المتقون العاملون الصالحات المطيعون أوامره لافرق بين قوم وقوم وأمة وأمة •

◉ يا أيها الناسُ انّا خلقناكم من ذكر وأُنثى وجعلناكم شُعوبا وقبائلَ لِتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم •

---

(١٠) سخريّاً ـ بتشديد الياء أي مسخّراً ـ بتشديد الخاء وفتحها ـ لقضاء المصالح •

وكلمة التقوى جامعة ، ليست محصورة في نطاق العبادات وحدودها فقط ، بل هي جماع كل خير وأساس كل فضل ، والله أعلم بهاوبالناس

والقرآن الكريم لايساوي بين الأفراد في أقدارهم ومنازلهم ومصائرهم وقد جاء فيه (١٩) آية بهذا المعنى • ومن أساليب القرآن الأتيان بالأضداد ليضع الأنسان أمام منطق الواقع الذي لاجدال فيه • ومن هذه الآيات :

- قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون ؟ انما يتذكر أُولو الألباب •
- أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لايستوون •
- وما يستوي الأعمى والبصيرُ ، ولا الظلماتُ ولا النورُ ، ولا الظلّ ولا الحَرور[١١] ، وما يستوي الأحياءُ ولا الأمواتُ •
- لا يستوي أصحابُ النار وأصحابُ الجنة ، أصحابُ الجنة هم الفائزون •
- مَثَلُ الفريقين كالأعمى والأصمّ والبصيرِ والسميعِ هل يستويان مَثلا أفلا تذكّرون ؟
- قل لا يستوي الخبيثُ والطيبُ ولو أعجبك كثرةُ الخبيث ، فاتّقوا الله يأولي الألباب لعلكم تُفلحون •

وهكذا تسير الآيات بالأتيان بالأضداد ومخاطبة ذوي العقول والألباب ليتذكروا ويهتدوا فيفلحوا •

---

(١١) الحرور ـ هو حر الشمس وحر النار •

ان حكمة الخالق جعلت لكل انسان دوراً في هـذه الحياة الدنيـا ، لذلك اختلف الناس وتفاوتوا ولم يتساووا في مستوى عقولهم وتركيب أجسامهم وطول أعمارهم الى غير ذلك مما يختلف كل انسان عن أخيه الأنسان ، ليسير ألكون بهذا الأختلاف الى الهدف الذي وضعه الخالق علاّم الغيوب ، وان كانت عقولنا محدودة لاتدرك من أسرار الكون الا الجـزء اليسير اليسير .

وعن[١٢] عائشة رضي الله عنها قالت : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نُنْزِل الناسَ منازلهم .

ومن كلام الأمام علي عليه السلام[١٣] ، قال كُمَيْلُ بن زياد ألنَخَعي : أخذ بيدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وقال : ياكُمَيْل بن زياد ان هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها ـ أي أحفظُها ـ فأحفظ عني ما أقول لك : ألناس ثلاثة : فعالم ربّاني ـ أي عارف بالله ـ ومتعلم على سبيل نجاة ، وهَمَج"[١٤] ورَعاع" أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا الى ركن وثيق ....

هذه الحقيقة التي دعا اليها القرآن الكريم أدركها بعض المفكرين من رجال الغرب ، لأن فكرة (الديمقراطية) التي تدعو الى أن الناس (متساوون) لا فرق بين فرد وفرد وفلان وفلان ، كانت قد ضللت

---

(١٢) رياض الصالحين ص ١٦١
(١٣) نهج البلاغة ج٣ ص ١٨٦
(١٤) الهمج ـ الحمقى من الناس ، وقوم همج لاخير فيهم والهمج ذباب صغير يقع على وجوه الدواب ، ويقال للحمقى همج على التشبيه . الرعاع ـ بفتح الراء هم سفلة الناس أو هم أخلاط الناس .

الشعوب لذلك ضاع الأنسان الناضج الممتاز وتغلبت الأكثرية غير الناضجة على الأقلية الممتازة المدركة التي أودع الله فيها أسراره ، بأسم المساواة أو الحرية أو العدالة الأجتماعية الى غير ذلك من الأسماء والألفاظ والشعارات، وقد أستطاعت الجمعيات والنقابات والأحزاب وغيرها بأسم الديمقراطية أن تقيد حرية الفرد وتجعله جزءاً من الرعية ، وبذلك فقد الأنسان الفرد شخصيته وما أودعه الله فيه وخلقه من أجله •

● أفحسبتم أنما خلقناكم عَبَثاً وأنكم الينا لا تُرجَعون ؟

فهذا الدكتور غوستاف[١٥] لوبون Lebon من أشهر مفكري وفلاسفة علم الأجتماع الفرنسيين يقول في كتابه (جوامعُ الكَلِم)[١٦] :

[لاتقاس قوة الأمة بعدد أهلها بل بقيمة الطبقة الممتازة فيها ، ونُخبة الأمة صُنّاع حضارتها ، فلا ترقى الا بهم ، واذا فقدتهم حل بها الفقر وتولتها الفوضى •

والديمقراطية عند العامة شيء وعند المتعلمين شيء آخر • وأول ما يفهمه العامة من الديمقراطية هو المساواة ، فلا يقولون بالأخاء بين الطبقات ، وليس لهم أقل عناية بالحرية • أما المستنيرون فظمؤهم الى الحرية شديد وميلهم للمساواة قليل •

---

(١٥) الدكتور غوستاف لوبون ١٩٣١ من مشاهير الفلاسفة الاجتماعيين الفرنسيين ، نقل بعض كتبه الى العربية • وهو من كتاب الغرب الذين أنصفوا الحضارة العربية وأشادوا بفضلها على الحضارة الاوربية عندما نقلوا تراث اليونان ، وذلك في كتابه (حضارة العرب) وقد ترجم الى العربية •

(١٦) جوامع الكلم ص٧٦ ، ٩٥ •

والسرّ في شدة ميل البعض الى المساواة ، هو في الغالب رغبة المـــرء في أن يتقدم على غيره ولا يتقدم أحد عليه •

والطبيعة لاتعرف المساواة ، وماكان من رقي فسببه التفاوت المتزايد كل يوم • ولا تميل الحضارة الى التسوية بين الناس ، بل هي تزيد في فُرجـة الفـــروق دائماً] •

ويقول الكاتب الفيلسوف والمؤرخ اللغوي المستشرق الفرنسي[17] (أرنست رينان) Renan ١٨٩٢م[18] [ان فكرة الديمقراطية في نظر رجال الدين منقوضة من أساسها ، فان صور الشعور مقدسة ولكنها ليست متساوية •••• ان العمل على رِفعة الناس قاطبة هو أول واجبات المجتمع ، ولكن رَفْع الناس كلهم الى مستوى واحد أمر مستحيل ، وما دامت الدنيا كما هي فاننا لا نستطيع أن نزعم أن هذا يعود عليها بالخير العميم •••• ولذا لاينبغ العلماء الفحول في الأمم المنتكسة الاخلاق أو الأمم السطحية ••• وموجز القول : ان غرض الأنسانية هو خلق العظماء ، والعمل العظيـــم سيُتمّه العلم لا الديمقراطية ، ولا يمكــن أن يتــم شــيء بغيــر العظماء ولا خلاص بغيرهم •

والديمقراطية لاتعمل على اعلاء الشعب ، وانما ترمي الى الأسفاف

---

(١٧) أرنست رينان مؤرخ وناقد ومفكر ومستشرق فرنسي ، أنتخب عضواً في الاكاديمية الفرنسية سنة ١٨٨٣ له أسلوب أدبي ساخر في كتابه (محاورات وشذرات فلسفية) وهو الكتاب الذي نقلنا عنه وقد ترجم الى اللغة العربية بعنوان (محاورات رينان الفلسفية) • وهو من أوائل المستشرقين وقد ألف رسالة عن (ابن رشد) ترجـم الـى العربيـــة •

(١٨) محاورات رينان الفلسفية ص١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٤١ •

به ، وهي لاتريد العظماء ، ولو كان رجل ديمقراطي حاضراً ، وصك مسمعه حديثنا واهتمامنا برقي الوسائل لخلق سُراة الناس لأخذته الدهشة • والحقيقة أنه من السخف والجور أن تُرغم الناس بنوع من الحق الألهي على قبول سادة ليسوا أسمى منهم لا في الكثير ولا في القليل]•

ـ ٣ ـ

وهذا الطبيب والعالم النفساني[١٩] (الكسيس كاريل) الحائز على جائزة (نوبل) لبحوثه الطبية يقول في كتابه (الأنسان ذلك المجهول)[٢٠] :

[يتجاهل المجتمع العصري الفرد ، فهو لايحسب حساباً الا لبني الأنسان فقط • انه يؤمن بحقيقة الكونيات ، ويعامل الناس كخلاصات • ولقد أدى اضطراب الآراء فيما يتعلق بالفرد وبني الأنسان الى وقوع المدنية الصناعية في غلطة جوهرية ، وهي معاملة الناس على أساس قواعد مرسومة • فلو أننا كنا جميعاً متساوين ، لأمكن أن نُربّى ونعيش ونعمل في قطعان كبيرة أشبه بقطعان الأغنام ، غير أن لكل منا شخصيته الخاصة ولا يمكن أن يُعامَل كرمز •••

وهناك غلطة أخرى تُعزى الى اضطراب الآراء فيما يتعلق بالأنسان الفرد ، وتلك هي (المساواة الديمقراطية) • ان هذا المذهب يتهاوى

(١٩) الكسيس كاريل طبيب فرنسي نال جائزة نوبل سنة ١٩١٢ لبحوثه الطبية ، عمل جراحاً في القوات الفرنسية في الحرب العالمية الثانية ، له عدة مؤلفات ، ومن آرائه أن الصلاة من وسائل الاتصال بالعقول التي حولنا وبالعقل الازلي المسيطر على الكون • توفي سنة ١٩٤٤
(٢٠) الانسان ذلك المجهول ص٣١٨ •

الآن تحت ضربات تجارب الشعوب ، ومن ثم فانه ليس من الضروري التمسك بزيفه ، الا أن نجاح الديمقراطية قد جعل عمرها يدعو للدهشة ، فكيف أستطاعت الأنسانية أن تقبل مثل هذه المذاهب لمثل هذه السنوات الطويلة ؟

ان مذهب الديمقراطية لا يحفل بتكوين أجسامنا وشعورنا ، انه لا يصلح للتطبيق على المادة الصلبة وهي الفرد . صحيح أن الناس متساوون، ولكن الأفراد ليسوا متساوين ، فتساوي حقوقهم وَهْمٌ من الأوهام . ومن ثَمَّ يجب أن لا يتساوى ضعيف العقل مع الرجل العبقري أمام القانون ، كما أنه لايحق للأغنياء المجردين من الذكاء ومشتتي العقل غير القادرين على الأنتباه أو بذل الجهد في الحصول على التعليم العالي .

ومن خطل الرأي أن يُعطوا قوة الأنتخاب نفسها التي تعطى للأفراد مكتملي النمو . كذلك فان الجنسين لايتساويان (فأهمال انعدام المساواة خطر جداً ، ولقد ساهم مبدأ الديمقراطية في انهيار الحضارة بمعارضته نمو الشخص الممتاز ، اذ من الواجب احترام مبدأ عدم تساوي الأفراد) ... ولقد أدت مساواة الناس طبقاً للمثل الأعلى للديمقراطية أن تغلب الضعفاء على الأقوياء ، ولهذا يتلقون كل مساعدة وحماية ...

ان مبدأ المساواة وأحتقار الفردية مسؤول الى حد كبير عن انهيار الفردية ، ولما كان من المستحيل الأرتفاع بالطبقات الدنيا ، فقد كانت الوسيلة الوحيدة لتحقيق المساواة الديمقراطية بين الناس هو انخفاض الجميع الى المستوى الأدنى ، وهكذا اختفت الشخصية ... وعاملنا الفرد كما نعامل المادة الكيميائية والآلة أو جزءاً من الآلة . لقد قضينا على وظائفه الأدبية

والجمالية والدينية .... ان ضعفنا الحالي مستمدّ من عدم تقديرنا للفرد ومن جهلنا لتكوين الأنسان] .

ان ما أحدثته الديمقراطية في المجتمع الغربي جعل المفكرين من الداعين الى الديمقراطية نفسها يحسون بخطورتها على المجتمع ، فظهرت طبقة (اليسار الديمقراطي) كما يقول الدكتور كرين برنتون Crane Brinten في كتابه (منشأ الفكر الحديث)[٢١] : [وصار مفكروها يتنادون بوجوب توفير الحرية للناس وافساح المجال للأفكار الجديدة المفيدة لتنمو وتزدهر ، ويطالبون بحقوق الفرد وتحقيقها .

وهم لايثقون بأي نظام يعمد الى صهر الفرد في المجموع واذابة شخصيته في المجتمع ، والحيلولة دون تفتّحها على الوجه الصحيح في جوّ من الحرية . وهم لا يؤمنون بالصراع الطبقي والثورات من أجل تحقيق المساواة الأقتصادية والأجتماعية بين أفراد الشعب . وينادون بضرورة تحسين الحكومات والأعمال المختلفة عن طريق الجمعية التشريعية ، ويرون أن المجتمعات الجماعية للنازيين والشيوعيين فيها من القسوة والحكم المستبد المطلق ما لا يتفق مع حقوق الفرد ونمو شخصيته وتكوينه صخرة في بناء المجتمع الحضاري] .

ولا بد من أن أختتم حديثي عن الديمقراطية بما ذكره [السير رتشرد لفنجستون Sir Living Stone وكيل جامعة أكسفورد في كتابه [التربية لعالم حائر] عن رأي أفلاطون في الرجل الديمقراطي ،

---

(٢١) منشأ الفكر الحديث ص٢٢٩ . اليسار كلمة تستعمل في السياسة وغيرها . واليساري هو ذو الرأي الذي يدعو الى الاصلاح أو تقويض النظام القائم .

- الدكتور كرين برنتون ـ عالم أمريكي له عدة مؤلفات وهو واسع الاطلاع على التيارات الفكرية والثقافية القديمة والحديثة .

بعد أن تحدث عن خطورة الديمقراطية فيقول[٢٢] : [والحق أن مجتمعاً كهذا يُخرج هذا الصنف من الرجال الذين يدعوهم أفلاطون (بالرجال الديمقراطيين) والذي نستطيع أن نرى في ثنايا وصفه صورتهم التي رسمها ذلك الفيلسوف من أكثر من ألفي سنة ، نستطيع أن نرى في هذا الرسم صورة وجوه تعاصرنا . قال أفلاطون في تصويره الرجل الديمقراطي :

انه يصرف من الوقت والجهود ، وينفق من المال على ملاذه الكمالية بقدر ما ينفق على حاجياته الضرورية ، وهو يضع مسرّاته جميعها في مرتبة واحدة من التساوي فلا يحرم احداها من حقها في أن تشبع ، وهو يسمح لكل واحدة منها – حسبما يوحي له هواه – بأن تسيطر على نفسه حتى تشبع وترضى . وحين يقال له : ان هناك ملاذّ ينبغي أن تكون موضع تقديره وعنايته ، لأنها تصدر عن رغائب سامية رفيعة ، وأن هناك ملاذّ يجب أن تُكْبَتَ وتُقْمَعَ ، لأن أهواء النفس فيها حقيرة ، حين يقال له ذلك يصمّ أذنيه عن سماع نُذُر الحق هازئاً مستنكراً ....

ان رجلاً كهذا لا يملك لرغائبه زماماً أو ضابطاً ، ولا يروم أن يبدل من أساليب حياة يعدّها سعيدة لذيذة مطلقة من كل قيد ، غير أن الحياة التي لا معايير خلقية لها ، هي من بين جميع ألوان الحياة ، أعظمها حقارة وجدباً ، وهي مريرة الوخز في حنايا الضلوع ، حتى وأن كانت حلوة المذاق للشفاه] .

---

(٢٢) التربية لعالم حائر ص١٠.
السير رتشرد لفنجستون من مشاهير علماء التربية الانكليز ، وهو كتابه يبحث في أثر الادب والدين والتاريخ في تدريب الاخلاق ، وينادي بأن الهدف الصحيح للتربية هو ترفيه مدارك الانسان وتنمية مواهبه وتهذيب أخلاقه واهتمامه بالحق والمعرفة وأن تكون له فلسفة ازاء الحياة .

لقد أطلت في الحديث عن الديمقراطية (٢٣) لأن هذه الكلمة على كل لسان ، وهي في نظر كثير من الناس المثل الأعلى في أساليب الحياة وأساليب الحكم ، وقد أصبحت شعاراً وستاراً ينادي بها البعض في كل مناسبة يريدون بها تحقيق أغراض ورغائب يسيّرون بها الناس . وهذه المذاهب الأقتصادية وبعض أساليب الحكم التي تطبق في بعض المجتمعات لم تثمر ثمراً تنتفع به البشرية بل صرنا نرى الكبت وانعدام الحرية وحجز الأفكار عن الانطلاق ووضع أساليب في التربية والتعليم تجعل دور العلم مصانع تنتج بضاعة من نوع واحد لافرق بين فرد وفرد ، وبذلك فقد كثير من الأفراد مواهبهم التي أودعها الخالق فيهم .

أن القرآن الكريم قد أعطانا صورة صريحة واضحة عن الأنسان كفرد له شخصيته ، وما فيه من خير وشر ، وعن الناس جميعا وفيهم المؤمنون

---

(٢٣) ان الديمقراطية الحديثة تنقسم الى شعبتين :

١ - الديمقراطية الغربية وهي تستند على دعامتين ، أولاهما : مبدأ سيادة الشعب وحقه في أختيار حكامه ورقابتهم . والثانية : مبدأ كفالة الحرية الفردية في المجالين السياسي والاقتصادي .

٢ - الديمقراطية الشعبية أو ديمقراطية المعسكر الشرقي وهي نظام يستند الى الفلسفة السياسية والاقتصادية التي وضع قواعدها (ماركس) ومن مبادئها : أنها تضع العدالة الاجتماعية قبل تحقيق الحرية السياسية وانها نظام يركز السلطة في يد الهيئة الحاكمة ويجعلها مهيمنة على جميع النشاط الاجتماعي والاقتصادي ، وهي لاتعترف بمبدأ الحرية الفردية.

والكافرون والصادقون والمنافقون والعادلون والظالمون والشاكـــرون والناكرون الى غير ذلك من الصور الدقيقة عن الأنسان كلغز من الالغاز وفيه تذكير وتأكيد على التفاوت وعدم التساوي بين الأنسان وأخيــه الأنسان •

لكن البعيدين عن الاسلام وعن فهمه وعن القرآن ودراسته ، تخبّطوا كثيراً في فهم الأنسان كفرد جاء الى هذه الحياة ، وله عمل وواجب يؤديه، أودعه فيه الخالق العظيم ، ثم يمضي ، ليدور دولاب الحياة وينتظم الكون ويدوم والله وحده العالم بسرائره وخفاياه •

* * *

واذا كانت الديمقراطية تدعو الى تعدد الأحزاب ، فانها تخلق العصبيات والاختلافات في وجهات النظر بأسم الحرية والمساواة واحتـــرام الرأي ، وهذا شيء جديد ينتج الفرقة والبلبلة في الافكار بين أبناء المجتمع الواحد وظهور الشعارات البرّاقة التي يجيدها بعض المَهَرة من رجال الأحزاب والسياسة والحكم •
والقرآن الكريم يدعونا الى وحدة الهدف ووحدة الكلمة ، ويحذرنا من اختلاف الآراء وتعدد الاحزاب لئلا يتيه المجتمع في السير وراء كل ناعق • والأسلوب الصحيح السليم هو السير في طريق دعوة الحق التي تدعونـا اليها السماء لتجتمع القلوب وتتوحد الاهداف ونبتعد عن تفاهات الدنيا •

◉ لو أنفقتَ مافي الأرض جميعا ماألّفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألّف بينهم انه عزيز حكيم •

وقد جرب رجال الحكم في بعض البلدان فكرة الحزب الواحد ، ليصبّوا الناس في قالب محدود رسموه حسب هواهم ، فأنكروا الأنسان الفرد وتكوينه وما فيه من أسرار وألغاز . فمن أين لهم أن يعرفوا طبيعة هذا المخلوق وهم لايستطيعون فهم أنفسهم ؟ وكيف يستطيعون أن يوجهوا الملايين جهة واحدة ؟ وشتان بين دعوة السماء ودعوة انسان هو قطرة من بحر مخلوقاتها العجيبة المدهشة الغريبة !!

◉ ان هذه أمتُكم أمةً واحدةً وأنا ربكم فاعبدوني ، وتقطّعوا [٢٤] أمرَهُم بينهم كلٌ الينا راجعون ..

◉ أولئك كتب في قلوبهم الأيمانَ وأيّدهم بروح منه ، ويُدخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها ، رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزبُ الله ، ألا ان حزبَ الله هم المفلحون .

◉ من الّذين فرّقوا دينهم وكانوا شيَعاً ، كلُ حزبٍ بما لديهم فرِحون

◉ وان الله ربي وربكم فأعبدوه ، هذا صراطٌ مستقيم ، فأختلفَ الأحزابُ من بينهم فويلٌ للذين كفروا من مَشْهد يومٍ عظيم .

◉ ومَن يتولَ اللَه ورسولَه ، والذين آمنوا فأن حزب الله هم الغالبون.

وعلى الرغم من الأحزاب التي كونها اليهود [٢٥] والمنافقون ورجال قريش لحرب الرسول صلى الله عليه وسلم فقد خسروا وخابوا وتقطّعت بهم الأسباب وتغلب حزب الله بفضل وحدة العقيدة والهدف، وفي هذا

---

(٢٤) تقطعوا أمرهم بينهم أي تقسموه .

(٢٥) الاحزاب هم : بنو قريظة وغطفان وقريش وقد حاربوا حزب النبي محمد فخسروا

عبرة وموعظه ، ولكن أكثر الناس لايعلمون .

هذه هي الدعوة الصادقة الى وحدة الهدف ، تلك الوحدة التي تميت العصبيات وتوحد الصفوف وتزيل الفوارق ، وتعطي لكل ذي حق حقه ، وتنمي المواهب وتخلق في الأنسان روح الشعور بالمسؤولية بدون ضغط واكراه ، الا من وازع الضمير .

وقد عبرّ أفلاطون عن تلك الروح حين قال [ليست (٢٦) الحريـــة مسألة قوانين ودساتير ، فالسرّ فقط هو ذلك الذي يتحقق من وجود النظام الألهي في داخل ذاته ، ذلك ألمقياس الصحيح الذي يستطيع به الأنســـان ان يحرك نفسه ويقدرها حق قدرها]

ولكن الناس اختلفوا وتقطّعوا أمرهم بينهم ، وتفرقوا الى أحـــزاب وشيَع وفرق شتى . والفرق عظيم بين وحدة الناس من طريق ديـــن سماوي يتفق مع طبيعة الأنسان وبين وحدتهم من طريق انسان مثلهم يضع لهم القوانين والنظريات والمبادىء ، تدفعه شهواته وطموحه وجهله بنفسه وطبيعته .

لذلك جاءت الآية ١١٦ من سورة الأنعام تحذر النبي صلى الله عليه وسلم من اتباع آراء الناس ومذاهبهم :

وانْ تُطِعْ أكثرَ مَن في الأرض يضلّوك عـن سبيل الله ، انْ يتبّعون الاّ الظن وانْ هم الا يخرُصون (٢٧)

ولعل ابن خلدون من اقدم المفكرين الذين درسوا خطورة تعـــدد الاحزاب ، فقد ذكر في (مقدمته) فصلا في(٢٨) [أن الدول العامة الاستيلاء

(٢٦) كتاب مغامرات العقل ص١٤٢

(٢٧) يخرصون — يقدرون ويحدسون ويخمنون .

(٢٨) المقدمة ص١١١

العظيمة الملك أصلها الدين ، اما من نبوّة أو دعوة حق] ويعلل ذلك بقوله [وذلك لأن المُلك لايحصل الا بالتغلّب ، والتغلب انما يكون بالعصبية وأتفاق الأهواء على المطالبة ، وجمع القلوب وتأليفها انما يكون بمعونة الله في اقامة دينه • قال تعالى : لو أنفقت مافي الارض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم – ولكن الله ألف بينهم انه عزيز حكيم – وسره ان القلوب اذا تداعت الى أهواء الباطل والميل الى الدنيا حصل التنافس ونشأ الخلاف واذا انصرفت الى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله اتحدت وجهتها فذهب التنافس وقلّ الخلاف وحَسُن التعاون والتعاضد واتسع نطاق الكلمة ، لذلك فعظمت الدولة] •

– ٥ –

ومن الغريب أن العالم البريطاني (أدورد هالت كار Carr أستاذ ألسياسة الدولية في جامعة (ويلز) في أنكلترا يرى في كتابه (دعائم السلام) رأي ابن خلدون نفسه تماما ، في أثر الدين والعدل الاجتماعي في توحيد القلوب والمبادىء ليعم السلام في العالم وتزول الحروب أو تقل ، لأنه عاش ويلات الحربين العالميتين الأولى والثانية ، ورأى الفواجع والخراب والدمار •

ومن رأيه أن في عالم اليوم اتجاهين يبشران بأن يَهَبا له قصداً معنوياً يصلح لان يحل محل الحرب في جمع ألشمل والسمو بالنفوس الى مرتبة

---

(٢٩) أدورد هالت كار : أستاذ ألسياسة الدولية في جامعة ويلز منذ سنة ١٩٣٩ أشغل وظائفا عديدة في وزارة الخارجية البريطانية ، وأتيحت له فرص عديدة للتغلغل في خفايا المشاكل الدولية ، وأكثر مؤلفاته تعالج الشؤون السياسية •

ألتضحية ، وأول هذين الأتجاهين هو الاخذ بأسباب الدين ، وثانيهما الأخذ بأسباب العدل الأجتماعي ، ويقول[٣٠] [فالدين عامل من أهم عوامل توحيد ألشعور ، وهو عامل ، وان كان خفياً لايمكن تصويره باللفظ ، يجعل للناس معايير واحدة ، ويقيسون بها قيم الأشياء ، وبهذا يجمع كلمتهم ويقرب بين قلوبهم •

فنحن هنا نتوجه الى المشرق والمغرب في حيرة نلتمس زعامة جديدة توجهنا الى ألخير ، وقد نجد في الدين تلك الزعامة الجديدة التي توجهنا الى ألخير ، على أن ذلك يتطلب اصلاحاً كثيراً في فهم الناس للدين ، فانما ألمقصود هو الجوهر ألصافي الذي لم تَشُبْه شوائب الخرافة والجمود ، فأذا ما صُفِيَ الدين الصحيح من تلك الشوائب ، كان هو والحياة ألصالحة معنى واحداً]

أما في حديثه عن العدل الأجتماعي فيرى أن الذين يزعمون أنهم قد أخذوا به في حكمهم قد أساءوا في فهم معنى العدالة الأجتماعية لانصرافهم الى ألجانب المادي وعدم اهتمامهم بالجانب الروحي والمعنى من ألعدالة ، ومع ذلك فالعدالة الأجتماعية تجعل للناس معايير واحدة يقيسون بها قيم الأشياء • ويرى أن الناس في المستقبل لابد من أنهم سيهتدون الى هذين الأتجاهين : الدين والعدل الأجتماعي ••

وهو يرى أن المستقبل ستتجه دعوته الى الأهتمام (بالفرد) الذي لاحول له ولاقوة في زحمة الحياة وتخليصه من هيئات الأنتاج الكبرى ومن قيود النقابات والاحزاب السياسية • وسيكون من مقاصد هذه الدعوة

(٣٠) دعائم السلام ص١٩٧ ، ٢٠١

الجديدة كذلك تحطيم أغلال هذه الهيئات وهذه النقابات وهذه الأحزاب لأنها ليست سوى آلات يستعملها أصحاب المصالح الكبرى في السيطرة على المجتمع وأستعباده • وسيادة هذه الهيئات المنظمة من أبرز مميزات هذا العصر وأسوئها أثراً في حياته]

وهذا السياسي المفكر وغيره لايزالون يتحدثون ويكتبون ويؤلفون عن خطورة مستقبل الأنسان وحضارته اذا ما أستمر بعض المبادىء والنظم التي تحكم الشعوب في هذا العصر •

ولقد تصور [٣١] (الدوس هكسلي Aldous Huxley الأديب والمفكر البريطاني مستقبل الأنسان في هذا العالم في كتابة (عالم جديد جريء) : [٣٢] [مرحلة تالية حيث تشمل السلطة المستبدة الأرض كلها ،ويصير البشر في ظلها أقرب الى الحشرات في عقولهم ، ويعمد أصحاب السلطان الى أساليب التناسل والتوجيه التربوي في ذلك العالم لتقسيم الناس الى أربع طبقات أو أربعة ضروب من نوع واحد ، يشق على الطبقة الواحدة منها أن تُنشيء اتصالاً فكرياً بينها وبين الطبقات الأخرى ، ولكنهم جميعاً يتصرفون كالنمل في جحر ضخم ••• وتحاول أن تجعل الرجال المفكرين عبيداً عقليين للدولة الكلية القدرة بدلا من أن تسمح لهم بأن يطيعوا السيد الوحيد في العالم ، بعد الله ، وذلك السيد هو العقل البشري • وهذا كله كفيل بأن يكون سبب كثير من الشقاء ، وان يبدّد الطاقة الحية في النافع من الناس ، ويؤذي بلاريب

(٣١) الدوس هكسلي ـ كاتب وروائي وشاعر وناقد انكليزي • درس في أكسفورد وله عدة مؤلفات •

(٣٢) كتاب جبروت العقل ص١٤١ •

مصالحها هي بأنكارها على الناس أن ينتفعوا بأفضل قواهم]

فأين الأسلام من كل ما يحدث في المجتمعات والدول التي نعاصرها وقد خضعت مئات الملايين الى تلك النُظُم ألتي تميت الفرد ، وتذهب بأعظم مخلوق صوره الخالق العظيم ، وبكل مافيه من مواهب ونبوغ وعبقرية خلاقة .

تلك هي مأساة الأنسان في هذا العصر !!

الأنسانُ والفكرُ

ان معظم علماء النفس وعلم الأجتماع والمفكرين ، يصفون انسان العصر بسطحيه التفكير ، وأحياناً بأنعدامه في بعض الحالات ، لان انشغاله في حياته اليومية وتهالكه على المادة ورفاهية العيش ، وسيطرة الأختراعات والأكتشافات على شعوره واحساسه كل هذا وغيره مما تخلقه الظروف ساعد على اغلاق منافذ عقله وجعْله انساناً آلياً مادياً فاقد الشعور والأحساس بنفسه كأنسان واذا فقد الأنسان شعوره بنفسه وتعطل تفكيره فقد كل شيء • فقد النُبل والطهارة والقيم الروحية والخلقية ومتعة الحياة السعيدة وأصبح آلة تتحرك صباح مساء بغير وعي وادراك •

والعقل الذي ميّز الأنسان عن بقية مخلوقات الله ، هو النور الذي يضيء الطريق للسائرين في دروب الحياة ، وهو القوة الخفية التي أخرجتنا من الهمجية الى الحضارة والحكمة ، وستسير بنا الى آفاق أبعد • والذين استعملوا عقولهم غيّروا العالم وطوّروه وكشفوا أسرار الكون وعظمة الخالق فيما خلق وأبدع • وهؤلاء هم الصفوة المختارة الذين أودع الله فيهم سرّه ، فهدوا الناس وقادوهم الى الخير وبنوا الحضارات وعمروا أسسها وأركانها وكانوا خير أمثلة لمن بعدهم •

وجاءت كلمة (العقل) وما يشتق منها في القرآن الكريم في ٤٨ آية في مناسبات عديدة ، تذكر الأنسان وتحثه على التفكير والتعقل والتأمل والتذكر ، وتجعل أصحاب العقول في أعلى المنازل ، وتستثنيهم من بقية

عباد الله ، لأنهم هم الذين يتفكرون فيما خلق الله من عجائب وغرائب في السماوات والأرض وفي النبات والحيوان وفي الأنسان نفسه وهو أعظم وأبدع مخلوق على الأرض .

ومن هذه الآيات ماجاء بصيغة الأستفهام المنفي الذي يُفهم منه التعجب أو التوبيخ لعدم التعقل والتفكير ، ومنها :

- أتامرون الناسَ بالبِرّ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتابَ أفلا تعقلون ؟
- والدارُ الآخرةُ خير للذين يتقون أفلا تعقلون ؟
- لقد أنزلنا اليكم كتاباً فيه ذكرُكم أفلا تعقلون ؟
- وما أوتيتم من شيء فمتاعُ الحياة الدنيا وزينتُها ، وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون ؟

وجاءت آيات فيها رجاء واشفاق على الأنسان الذي لايستعمل عقله ، بعد أن تبيّن له الموعظة والدليل والعبرة مثل

- كذلك يُحيي اللهُ الموتى ويريكم آياتهِ لعلكم تعقلون .
- انا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون .
- هو الذي خلقكم من تُراب ثم من نُطفة ثم من عَلَقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلُغوا أَشُدّكم ثم لتكونوا شيوخاً ، ومنكم من يُتوفّى من قبلُ ، ولتبلُغوا أجَلاً مُسمّى ولعلكم تعقلون .
- أرأيت من اتخذ الهَه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلا ؟ أم تحسَبُ أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، انْ هم الا كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً .

● ولئن سألتَهم من نزّل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتهـا ليَقولُنّ : ألله ، قل : الحمد لله بل أكثرهم لايعقلون •

وجاءت كلمة (فكر) ومايشتق منها في ١٨ آية ومنها •

● كذلك نفصّل الآيات لقوم يتفكرون •

● ومن آياته أنْ خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها ، وجعـل بينكم مودةً ورحمة ، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون •

● وتلك الأمثالُ نضربها للناس لعلهم يتفكرون •

وترددت كلمة (أولو ألألباب) في ١٦ آية • والألباب جمع (لُبْ)، ولبّ الأنسان هو ما جُعِل في قلبه من العقل ، مثل

● ولكم في القصاص حياةٌ ياأولي الألباب لعلكم تتقون ••

● يؤتي الحكمةَ من يشاء ، ومن يُؤتَ الحكمةَ فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذّكرُ الا أولو الألباب •

● ان في خلقِ السماوات والأرض واختلافِ الليل والنهار لآيات لأولى الألباب •

– ٢ –

وقد وردت في القرآن الكريم كلمة (آية) وجمعها آيات ٣٨٢ مرة • والآية هي العلامة أو العبرة ، وآيات الله عجائب مخلوقاته • وجاء في بعض الآيات مناقشة دقيقة ووصف لقدرة الخالق وعظمته فيما خلق ، لتكـون تنبيهاً وتذكرة لأولي الألباب ولتتحرك العقول الجامدة • ومنهاماجاء فيسورة ألنحل :

● هو الذي أنزل من السماء ماءً لكم منه شرابٌ ومنه شجرٌ فيـه

تُسيمون [1] ◉ يُنبت لكم به الزرعَ والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ان في ذلك لآيةً لقوم يتفكرون ◉ وسخّر [2] لكم الليلَ والنهار والشمس والقمر والنجومُ مُسخّرات بأمره ان في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون ◉ وما ذَرَأَ [3] لكم في الأرض مختلفاً ألوانه ان من ذلك لآيةً لقوم يذّكّرون ◉ وهو الذي سخّر البحرَ لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حِلية تلبسونها ، وترى الفُلكَ [4] مواخِرَ [5] فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ◉ والقى في الأرض رَواسي [6] أنْ تَميدَ [7] بكم وأنهاراً [8] وسُبُلاً لعلكم تهتدون •

وعلى هذا النسق من الآيات جاء هذا العدد الكبير من عجائب ماخلق الله ، وكلها تذكرة وتوجيه وحث على التعقل والتفكير والتذكر ، لعل هذا الأنسان يعي ويدرك ويهتدي ويعرف طريقه في الحياة •

وجاء في القرآن الكريم (٣٥) مثلاً لأمور كثيرة ، وفي كل مثل مقارنة عقلية لتوضيح الفكرة وجلب الأنتباه وتركيز الفكر •

---

(١) تسيمون ـ ترعون فيها مواشيكم •

(٢) سخر ـ بتشديد الخاء أي ذلل ، والنجوم مسخرات أي جاريات مجاريهن •

(٣) ذرأ لكم ـ أي سخر لكم ماخلق •

(٤) الفلك ـ السفينة وتكون للواحدة والجمع •

(٥) مواخر ـ جارية فيه تذهب وتجيء •

(٦) رواسي ـ الجبال الثابتة •

(٧) تميد بكم ـ تضطرب يميناً وشمالا

(٨) السبل ـ جمع سبيل وسبيل الله هو الطريق الواضح وطلب العلم وكل ما أمر الله به من الخير •

● ولقد ضربنا للناس في هذا القرآنِ من كل مثل •

● ويضرب الله الأمثالَ للناس لعلهم يتذكرون •

● وتلك الأمثالُ نضربها للناس وما يعقِلـُها الاّ العالمِون •

ومن هذه الأمثلة :

● انما مثلُ الحياة ألدنيا كماء أنزلناه من السماء فأختلط به نبات الأرض مما يأكل الناسُ والأنعام حتى اذا أخذت الأرضُ زُخرفَها وأزّيّنت وظن أهلـُها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً ، فجعلناها حصيداً(٩) كأن لم تَغْنَ(١٠) بالأمس ، كذلك نفصّل الآيات لقوم يتفكرون •

ان ترديد الفكر والعقل وذكر الآيات وضرب الأمثال ومخاطبة أولي الألباب بهذه الكثرة في القرآن الكريم ، خير دليل على مدى العنايـــــة بالأنسان بتوعيته وتعميق فكره في نفسه وفيما حوله لئلا تعبث به الأهـواء وتضلله المباديء البراقة ، فيضل الطريق ويخسر اطمئنان النفس وغذاء الروح ولذة الفكر وسعادة الحياة ، وكل ما يقدمه الأيمان للأنسان من متع الحياة وخيرات الدنيا والآخرة • والأسلام دين الفكر والعقل والعلم والعمل

ومن أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم [(١١) ان الرجل ليكون من أهل الصيام وأهل الصلاة وأهل الحج وأهل الجهاد ، فما يُجزي يوم القيامة الاّ بقدر عقله]

وقوله (١٢) [لقد سِبقَ الى جنات عَدْنٍ أقوام ماكانوا بأكثر الناس صلاة ولا صياماً ولا حجاً ولا اعتماراً ، ولكنهم عقلوا عن الله عز وجـل

(٩) الحصيد ـ المحصود من الزرع
(١٠) لم تغن بالامس أي لم يقم أحد في هذا المكان بالامس
(١١) كتاب ذم الهوى لعبد الرحمن بن الجوزي ص٧
(١٢) روض الاخيار المنتخب من ربيع الابرار ص ٤٣

مواعظه فوجِلَت قلوبهم وأطمأنت اليه نفوسهم ، وخشعت منهم الجوارح ففاقوا الخليقة بطيب المنزلة وحُسن الدرجة عند الناس في الدنيا وعندالله في الآخرة]

وعن أنس بن مالك [١٣] [أثنى قوم على رجل عند رسول الله (ص) حتى بالغوا في الثناء بخصال ألخير • فقال رسول الله : كيف عقل الرجل ؟ فقالوا : يارسول الله نخبرك عنه باجتهاده في العبادة واصناف الخير وتسألنا عن عقله؟ فقال النبي (ص) ان الأحمق يصيب بِحُمْقِه أعظم من فجور الفاجر ، انما يرتفع العباد غداً في الدرجات وينالون الزُلفى من ربهم على قـــدر عقولهم]

- ٣ -

وعلماء النفس يركزون كثيراً على قيمة عقل الأنسان وسلوكـــه وتصرفاته وما يفكر فيه ، حتى ان العالم النفساني هـ • أ • أوفرستريت [١٤] H.A. Overstreet يقول في كتابه [العقل الناضج] [١٥] ان أدق تعريف للأنسان هو انه عقل يسير في طريق المعرفة والأستزادة منهـــا •

ويرى بعض علماء النفس : أن التفكير صعب • وحيناً يقولون [١٦] [ان التفكير هو أصعب عمل في الدنيا ، ولهذا يتهرب أغلب الناس منه] وبذلك تضيع من كثير من الناس فرص الحياة والنجاح في الأعمـــال ،

---

(١٣) روض الاخيار ص٤٣

(١٤) هـ•أ• أوفرستريت ـ عالم نفساني درس في جامعة اوكسفـــورد والتحق بجامعة كاليفورنيا ثم رئيسا لقسم الفلسفة وعلـــم النفس في جامعة نيويورك • له عدة مؤلفات ومحاضرات •

(١٥) العقل الناضج ص٣٥٧

(١٦) عقلك مفتاح الفرص ١٥٢

ويتصرفون تصرفاً فيه أخطاء تعود عليهم وعلى مجتمعهم بالضرر •

ويقول أحدهم : اذا لم يستعمل الأنسان دماغه ، فلا يمضي عليه وقت طويل حتى لايجد دماغاً يستعمله •

ويقول آخر : ان الحياة بدون جهود عقلية هي نوم أبدي •

وفاقد التفكير يقل اهتمامه وتضعف ذاكرته وتشل ارادته ويفقد نفسه وبذلك يخسر أثمن شيء في الدنيا وما اكثر الخاسرين •

ومع ذلك فعلماء النفس يرون ان كل انسان يمتلك الأرادة والاحساس الباطني للرغبة في اتمام أي شيء والحصول عليه ، فانه يستطيع ان يفكر ويركز تفكيره ويكف عن التردد وعدم الأهتمام ، ويختزن من ذاكرته كل مايهمه ، وبذلك تتوضح له حقائق الامور بكل جلاء •

ويرون أن جهود العقل تقارن بجريان الماء وضوء ألشمس ، فاذا كان مجرى النهر بطيئاً ووضعت أمامه سداً ، فهو يصبح عميقاً وقوياً في جريانه• وأشعة الشمس المنتشرة اذا جمعتها بالعدسة فهي تكون (بؤرة) قوية شديدة الأضاءة وألاحتراق •

ان سد العقل أو عدسة العقل هو قدرة العقل على التركيز ، وان قابلية التركيز لمدة طويلة كان قد أمتلكها معظم العلماء والمفكرين والمخترعين • والتركيز يجعل الأنسان هادئاً ويعود العقل على شدة الأهتمام لمدة طويلة في الموضوعات والمشاكل المهمة جداً • وهؤلاء المشهورون من العلماء والمفكرين والفنانين احتفظوا بجهودهم الخلاقة حتى في شيخوختهم ، بينما الناس الذين يعيشون حياة بلا هدف وتفكير سرعان ما تتضاءل قابلياتهم بسرعة كبيرة •

وقد أدرك المفكرون والفلاسفة وعلماء النفس ان قِصَر العقـــول وانعدام التفكير هما اللذان يسببان الألحاد والبعد عن الدين ، لأن المفكر يؤمن ولايلحد ، وعلى قدر تفكيره يكون ايمانه ، وانصراف الناس الــى الحياة المادية أبعدهم عن التفكير والتعمق في الحياة ، لذا أصبحت حياتهم رتيبة سطحية تدور في حلقة المادة وشؤون الدنيا ، وهم لايفكرون فــي لماذا جاءوا الى هذه الدنيا وما مصيرهم ؟ وماذا يحيط بهم وما الغايـــة من وجودهم ؟ كل هذا وغيره قد غفلوا عنه ولم يفكروا فيه .

والأستاذ (١٦) بول تيليش أساذ الفلسفة وعلم اللاهوت ، يحدثنا عن سطحية الأنسان الغربي وعن موجة الألحاد السائدة في المجتمع . وأنا أنقل هنا خلاصته رأيه من كتاب (١٧) [مغامرات العقل] لأن موجة الألحـاد جاءتنا قوية عارمة ، والأنسان مقلّد ممتاز كما يقولون .

فهو يرى أن العنصر الأساسي في محنة الأنسان الغربي في عصرنــا هذا هو فقدانه عمق التفكير ويسميه (بُعْد العـُمق) ويعرفه بأنه يعنــي أن الأنسان فقد الجواب عن هذه الأسئلة :

مامعنى الحياة؟ من أين نأتي والى أين نذهب ؟ ماذا علينا ان نفعل ؟ ماذا علينا ان نصبح في الفترة القصيرة ألممتدة بين الميلاد والوفاة؟ ويرى أنّ أسئلة كهذه لاتخطر ببال من فقد عمــق التفكير ، ولايجيب عليهــا ،

---

(١٦) بول تيليش استاذ في جامعة هارفرد في أمريكا ، وعضو الهيئـــة التدريسية في كلية اللاهوت . عمل أستاذا للاهوت والفلسفة فـي كثير من جامعا ألمانيا قبل ان يهاجـــر الى امريكا بسبب انتقـــاده للنازية . له عدة مؤلفات في الفلسفة واللاهوت .

(١٧) مغامرات العقل ص٨٧ وما بعدها .

وهذا يعود الى علاقة الأنسان بالكون وبنفسه في هذا العصر الذي اصبحت فيه الطبيعة تخضع علمياً وتقنياً لسيطرة الأنسان • لكن الأنسان أستبدل حياة ذات فكر سطحي – ويسميه البعد الأفقي – بحياة ذات فكر عميق ، لأن المجتمع الصناعي الذي نعيشه تمتد القوى المحركة فيه أفقياً لاعمودياً •

فالحياة ألتي نعيشها في البيوت والمكاتب وفي الحفلات والاجتماعات ••• كل هذه في ذاتها فقدت عمق التفكير فيها انها تجري الى الأمام وكل لحظة تحتاج الى قول وحديث وعمل أو تصميم فيما له علاقة بالدنيا وبذلك ينشغل الأنسان عن الوقوف والتثبّت من ذاته كأنسان • وهذه الحياة التي نحياها في هذا العصر هي أهم سبب لفقدان عمق التفكير وفقدان الدين بمفهومه الأساسي والكلي •

ثم يذكر الأستاذ بول تيليش أمثلة على بعض القيم الدينية ، التي اذا قيست بالفكر السطحي أو المستوى الأفقي ، تصبح أموراً عادية لاقيمة لها ولاتحتاج الى تأمل وبحث وتفكير وأهتمام ، فيقول : ان قصة الخليقة ومظهرها التي تشير الى الأساس الألهي في كل شيء اذا ما نُقلت الى المستوى السطحي في الفكر تصبح قصة لحوادث في ماض سحيق لايوجد اي شاهد على صحتها •

وكذلك فان قصة (هبوط الأنسان من جنة عدن ، اذا مانُقلت الى المستوى السطحي ، فانها تصبح قصة اثنين من البشر حدثت منذ بضعة آلاف من السنين فيما يعرف اليوم بأسم العراق • وهكذا يصبح واحد من أعمق الأوصاف النفسانية للمصاعب الأنسانية العامة ، مجرد عبث اذا مابُحث على هذا المستوى •

وكذلك فكرة (الألوهية) وجميع الأمور المتعلقة بها التي تمثل اهتمام الأنسان النهائي ، اذا ما نقلتها الى المستوى السطحي ، فان الأله يصبح كائناً كغيره من الكائنات ، ويخضع في وجوده اوعدمه الى البحث والتحري • وليس ما يدل على سطحية الفكر كالجدل المستمر حول وجود الأله اوعدمه لأن البحث في ذاته خطأ لامكان له الا عندما يفقد الأنسان عمق التفكير •

وعندما يصبح الأنسان جزءاً من المستوى السطحي في تفكيره فأنه يفقد ذاته ويصبح شيئاً من مجموعة الأشياء ، وعنصراً من عملية الأنتاج اليدوي والأستهلاك العقلي ، وهذه الحقيقة أمر معروف عند الجميع •

— ٤ —

وبعض علماء النفس حاولوا انقاذ الأنسان من ضحالة تفكيره وتوجيهه نحو التركيز لكي يدرك رسالته وواجبه ونجاحه في الحياة • ولابد لنا من ذكر أحد الجهود الأنسانية في سبيل الأنسان وفكره •

فهذا العالم النفساني هـ • د • أنيفر أسس طريقه (البلما نيزم) Pelmanism وهي طريقة حديثة في تمرين الذاكرة على منهاج علمي كامل لتدريب كل شخص على أستعمال عقله بطريقة تكفل له النجاح ،فألف كتابه (عقلك مفتاح الفُرَص) •

ولعل نجاح هذه الطريقة راجع الى السنوات التي قضاها هذا العالم في طوافه حول العالم ، واحتكاكه بمختلف الشعوب والأجناس ، ومراسلاته مع عدد كبير جداً من الناس من كل الطبقات ، مما ساعده على دراسة أحوالهم ونُظُم حياتهم ، وبذلك جمع معلومات نافعة عن الحياة وكيفية علاج مشاكل مختلف الناس •

ويرى هذا العالم أن تركيز التفكير علامة التفوّق العقلي ، وأن أهمية التركيز لايمكن التعبير عنها في كلمات قلائل ، وفوائده عديدة لاتحصى ويعدد بعضاً منها [١٨] .

ويرى أن هناك فكرة خاطئة ، ترى ان التركيز يجعل الأنسان مفكراً بطيئاً والغاية المطلوبة في هذا العصر هي ان يصبح الأنسان مفكراً سريعاً . والواقع هو أنه كلما أستطاع الأنسان أن ينجح في تركيز اهتمامه يرى الأمور أكثر وأبعد وبسرعة أكثر . وكل العلماء الذين حصلوا على اكتشافات رائعة خدمت الأنسانية ، استخدموا عقولهم بهذه الطريقة .

ومزاولة التركيز تؤدي الى حياة أكثر تعقّلاً ، كما أنها تهب نظاماً مدهشاً لقوى العقل ، وهي الضرورة التي تسبق اشعاع الأكتشاف العلمي .

هذه بعض آراء هذا العالم في حديثه عن التركيز العقلي ، وهو لايذكر هذه القيم للتفكير المركز فحسب ، بل يشرحها ويأتي بالأمثلة ويضع تمرينات لكل منها ويطلب الى القارىء العمل بها حسب قابلياته اذا أراد .

هذه محاولة انسان عالم أراد أن يخدم أخاه الأنسان مهما كانت جنسيته ومذهبه ومعتقده . والأسلوب العلمي هو ألذي يوجه ألأنسان الى الحقيقة بفضل الدأب والبحث والتحقيق والتدقيق والمعرفة والعمل . أما النصح بألأقوال والخطب والشعارات ، فتلك لاتوجّه انساناً ولاتوقظ عقلاً ولاتفتح عيوناً .

---

(١٨) عقلك مفتاح الفرص ص١٥٥

الأنسان والأيمان

ان من حكمة الخالق ان يصطفي مـــن عباده أناساً يجعلهم هـُـــداة
ومصلحين ومبشرين ومنذرين ، ويجعل من نشأتهم وحياتهم وتمسكهـــم
بمبادئهم وأداء رسالتهم وكفاحهم في سبيل ذلك ، مثلا أعلى لكل انسان في
كل زمان ومكان والانسان هو الذي نراه ، وسيبقى على حاله الى ماشاء الله،
وحياته كلها كفاح وصراع وقد جاء الى الدنيا من أجل رسالة عليـــه ان
يؤديها بأمانة .

وكل الأنبياء والرسل والعلماء والمصلحين كافحوا وصارعـــوا الناس
والحياة مزودين بأعظم قوتين تدلان على قيمة الأنسان وهما : قوة الأيمان
وقوة الصبر ، وبدونهما يفقد الأنسان انسانيته ويسقط في معركة الحياة .

وليس بين الأنبياء والرسل من صارع وكافح في حياته وتحمل المصاعب
كالرسول العظيم محمد صلى الله عليه وسلم :
صارع اليُتْم منذ رأى الدنيا .
وصارع الفقر .
وصارع جبابرة عُبّاد الأوثان ، وبينهم من أقرب الناس اليه .
وصارع اليهود وكانوا حوله في كل جانب .
وصارع ألمنافقين ، وما اكثرهم .

ولكنه انتصر على هؤلاء كلهم وأدى رسالته بفضل ايمانه بمبدئـــه
وصبره عليه .

كان يستمع الى صوت الوحي يقول له :

- وأتّبعْ مايُوحي اليك وأصبرْ حتى يحكمَ اللهُ وهو خير الحاكمين
- فأصبرْ كما صبر أولو العزم من الرُسُلِ ولاتستعجلْ لهم •
- فأصبر لحكم ربك ولاتُطِعْ منهم آثِماً أوكَفوراً •
- فأصبر انّ وعدّ الله حقٌ ولا يستَخِفَنَّكَ الذين لايوقنون •
- وأصبر على مايقولون وأهجرهم هَجْراً جميلاً •

والأيمان من الأمن والطمأنينة ، ويراد به التصديق [١] بالله ورسوله وما أنزل اليه ، وهو القوة الدافعة لتعلق الأنسان بخالقه وأطاعته وعمله بأوامره ونواهيه ، وشعوره بوضوح الرؤية للدرب الذي يسير عليه والعمل الذي يقوم به ، وأحساس بدافع الرسالة التي يجب ان يؤديها في سبيل الخير ، وفي ذلك اطمئنان للنفس وتخفيف من وَقْعِ المشاكل والمصاعب وشعور بلذة الحياة •

والصبر هو قوة الثبات والعزم ، به يعمل الفكر وتتوضح الأمور ويقرب البعيد وتسهل الصعاب وينال الأنسان بفضله مايريد •

ولقيمة الصبر في الحياة وأثره في النفوس وما يحقق من خير ، فقد تكررت في القرآن الكريم كلمة (الصبر) وما يشتق منها في ١٠٣ آية في مناسبات عديدة وان كنّا غافلين عنها •

---

(١) الايمان هو من أولى المشاكل التي اختلف فيها جماعة المرجئة والخوارج • فالمرجئة قصروه على مجرد التصديق والاقرار وإذن لايزيد ولا ينقص • والخوارج وانضم اليهم المعتزلة اعتبروا أركانه ثلاثة : تصديق بالقلب واقرار باللسان وعمل بالاركان • الموسوعة العربية ص٢٦١

وأسرار الحياة لايعلمها الا علاّم الغيوب .

- وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى ان تحبّوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لاتعلمون .

وفي الحياة أسرار وأسرار والعاقبة للمؤمنين المتقين .

- يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا (٢) وأتقوا الله لعلكم تُفلحون .
- انه من يتّقِ ويصبر فان الله لايضيع أجرَ المحسنين .
- ولَنجزِينّ الذين صبروا أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون .
- وجزاهم بما صبروا جنةً وحريراً .
- انما يُوفّى الصابرون أجْرَهم بغير حساب .
- والعصرِ ان الأنسان لفي خُسْر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر .

وهكذا نجد ان الصبر وحده لايخفف المصاعب ويحل المشاكل ويطمئن النفس ويوضح الرؤية الا اذا كان مصحوباً مدعوماً بالأيمان ألصادق النابع من القلب وصميم الفؤاد ، والا فالصبر بدون ايمان سُبات عقلي وصبر بليد لايحقق غرضا ولايوصل الى هدف .

والصبر الذي دعانا الله اليه وأكده وكرره ، ومنحنا عليه خير الجزاء هو الذي يدعو الى التفكير والتأني ودراسة الأسباب بكل هدوء وطمأنينة ، وبذلك تتوضح للأنسان الطرق وتتكشف له الحقائق ويدرك أشياء وأشياء كانت غائبة عنه أو غافلاً عنها .

فالعالم أو المكتشف أو المخترع لاينال ما يبتغيه من جهوده وكفاحه

(٢) رابطوا ـ أي حافظوا وواظبوا وأقيموا على الامر .

الا اذا آمـن بصواب رأيه ووضـوح رؤيته لبحوثـه وتجاربه ، ولكـل انسان رسـالة •

وكم من عالم جـاهد وكافح وأحسَّ بلذعـة الفقر والمرض ، لكنه أستمر في الطريق الى النهاية يحددُه ايمانه وصبره فنال ماتمنـاه واتـى بما ينفع الناس •

وكم من مصلح طُورد ورُجِم ولكنه بأيمانـه بصدق دعوته الـى الخير وصبره ، أستطاع أن يثبت ويؤدي رسـالته •

وكم من جيوش قليلة العدد قليلة العُدد أستطاعت الغلبة والفـوز والنصر بفضل الأيمان بحقهـا وبصبرها وثباتها •

- ان يكنْ منكم عشـرون صابرون يغلبوا مائتين •
- وكم من فئةٍ قليلة غلبتْ فئةً كثيرة بأذنِ الله والله مع الصابرين •

وكم مـن ثورة اصلاحية فشلت لأن القائمين عليها لـم يمتلكوا الصبر بـل تعجَّلوا ففشلوا وضاعوا وكثرت ضحاياهم •

تلك هـي سنة النجـاح في الصراع مع الحيـاة : ايمان وصبـر علـى اداء الرسالة بأمانة وصدق •

- ٢ -

والأنسان العصري طغـت عليـه المادة وشهـوات النفوس والتكالب على متع الحياة التي لاحدود لها ، فحطمته الآلة وأدهشه الأختراعات وبذلك فقد ايمانه وأنقطعت الصلة بخالقه ، فتاه في الحياة لايدري : أهو انسان له روح أم آلة تتحرك لغير هدف وغاية ؟

هذا الأنسان مع فقدانه الأيمان فقـد الصبرَ وصار يطلب السرعـة

والعجلة للحصول على كل شـيء ، فأنهارت أعصابه وضعف عقله وخسر نفســه ، وهي أثمن ما يملك .

ويقـول أحـد العلماء المفكرين المهتمين بالأنسـان وهو الـدكتور (الكسيس كاريل) في كتابه (الأنسان ذلك المجهول)[٣] : [ومـن العجب أن الأمراض العقلية ـ في الولايات المتحدة الأمريكية ـ أكثر عدداً من جميع الأمراض الأخرى مجتمعة ، ولهذا فان مستشفيات المجاذيب تعج بنزلائها ، وتعجز عن استقبال جميع الذين يجب حجزهم ... وتـــدل الارقام على مدى استعداد شعور الرجـل المتحضـر للعطب ، وكيـف أن الصحة العقلية تعتبر من أهم المشاكل التي يواجهها المجتمع العصري ، فان أمراض العقل خطر داهم ، انها أكثر خطورة من السل والسرطان وأمراض القلب ، بل التيفوس والطاعون والكوليرا] .

لذلك نجد أن علم النفس ومدارسه وعلماءه في الغرب قد كثروا مع الأيام ، وبخاصة في الولايات المتحدة ، وهم يؤكدون بأن القيم الروحيـــة والعقيدة الدينية الصحيحة من أهـم الأدويـة لعـلاج الأمراضـ النفسية والعقلية والجسمية .

وهذا الطبيب والعالم الأخصائي الدكتور (جايلورد هاورز) الذي عالج ألوف المرضى لمدة طويلة وأطلع على نفسياتهم وشعورهم ومـــدى صبرهـم وتحملهـم الآلام يقـول في كتابـه (عشـ مائـة عـام)[٤] : [ولا يفوتني هنا أن أشير الى ما للأيمان الديني مـن أهمية قصـوى في حياة البشر ، وأنه ليس أحمق ولا أشد عمى وانطماس بصيرة من أولئك

(٣) الانسان ذلك المجهول ص١٨٧

(٤) عش مائة عام ص١٥٤

الذين يزعمون أن لامكانة في العصر الحديث للدين • فالعقيدة هي النجم القطبي الذي يهدي الملاحين في عرض البحر اذا خيمّ الظلام ، والحياة العصرية أشد تلاطماً وأوسع مدى وأحفل بالأخطار والغوامض من بحر الحياة في الزمن القديم • فالحاجة اليوم الى العقيدة أشد منها في أي عصر • والنفس المطمئنة الآمنة لايمكن أن تكون كذلك ما لم تستند الى عقيدة راسخة أبدية أزلية ••• وهذا العالم النفساني (كارل يونج) صاحب نظرية (علم النفس التحليلي) يقول : لقد قصدني آلاف يطلبون المعونة والشفاء من الحيرة والأنحلال ، فكان أسرعهم في الشفاء التام هم ذوو ألعقيدة ومَن في سريرتهم بذرة التدين الصادق] •

ويقول الكاتب المفكر الناقد[٥] (توماس كارلايل Thomas Carlyle في كتابه (الأبطال)[٦] : [أما الأيمان فهو عندي صُنْع العقل الراجح ونتيجة الذهن الصحيح ، وهو عملية خفية مبهمة لاتوصف ، شأن كل عملية جوهرية حية • ولم نُعْطَ العقل لنعارض به ونُسَفْسِط ونجادل ونَلْغَط ، ولكن لنرى به حقائق الأشياء ، فنفهم ونوقن ، ثم نجعل اليقين أساساً نبني عليه الفعال ، ومبدأ نستهلّ به فواتح الأعمال] •

* * *

والأنسان المؤمن الصابر هو المثل الأعلى للأنسان الذي يريده الخالق العظيم من خليفته في الأرض ، وهو بأيمانه وصبره وأدراكه الحقائق وفهمه

---

(٥) توماس كارلايل ــ كاتب ومفكر وناقد انكليزي ، ولد سنة ١٧٩٥م وله عدة مؤلفات منها كتاب الابطال وهو من أشهر كتبه وفيه دفاع عن الاسلام والرسول الكريم في حديثه عن البطل في صورة رسول •

(٦) الابطال ص٢٢٥

المشاكل والمصاعب ، اذا حكم عدل واذا أُسيء اليه غفر ، واذا نـال مـن المال شيئا أنفق ، واذا وجد خراباً عمر ، واذا جابه مشكلة فكّر وركّـز وتعمق ، واذا أصابه القدر رجع الى ربه قائلاً : انا لله وانا اليه راجعون •

ومن أحاديث الرسول صلى اللـه عليه وسـلم ، عـن أبـي سعيد الخدري[7] : ما أُعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر •

وعن أنس بن مالك قوله صلى الله عليه وسلم[8] [مـن جَهْـد البلاء قلة الصبر] أي أن قلة الصبر تزيد البلاء شدة وجهداً •

ومن أقوال الأمام علي عليه السلام [9] : عليكم بالصبر ، فان الصبر من الأيمان كالرأس من الجسد ، ولا خير في جسد لا رأس معه ، ولا في ايمان لا صبر معـه •

وقوله : لايعدم الصبور الظفر وان طال الزمن •

وقوله : الصبر صبران : صبر على ماتكره وصبر عما تحب •

ويقول أحد الحكماء[10] : لكل شيء جوهر ، وجوهر الأنسـان العقل وجوهر العقل الصبر •

ويقول أحد المفكرين : لعل هناك خطيئة أساسية وهي نَفاد الصبر ، فبسبب نفاد الصبر طُردنا من الجنة وبسبب نفاد الصبر لا نستطيع العـودة اليهـا •

---

(٧) ذم الهوى لعبدالرحمن بن الجوزي ص٦١

(٨) المصـدر السابق ص٦١

(٩) نهج البلاغة ج٣ ص١٦٤ ، ١٦٨ ، ١٩١

(١٠) ذم الهوى ص٦٢

واذا كان الخالق يدعونا الى الأيمان مع الصبر لمواجهة الحياة والعيش بسعادة ونفس مطمئنة لأن عقولنا لاتدرك أسرار الحياة وحكم القدر ، فقد ضرب لنا في القرآن مثلين فيهما كل العبرة والموعظة الحسنة لمن أدرك ووعى وأراد الخير لنفسه ، فمن آمن ولم يصبر أخطأ ، ومن آمن وصبر نال الجزاء الأوفى •

فأولهما : قصة الخضر وموسى عليهما السلام •

وثانيهما : قصة أيوب النبي الصابر عليه السلام •

أما قصة الخضر وموسى عليهما السلام ، التي جاءت في سورة (الكهف) فالغاية منها هي افهام الناس أن أسرار الحياة خافية على أقرب الناس الى ألله ، وهم الأنبياء والرسل ، لذلك تقول الآية عن الرسول الكريم عندما سألوه عن موعد (الساعة) أي موعد زوال العالم • :

﴿ قل لاأملك لنفسي نفعاً ولاضراً الا ماشاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لأستكثرتُ من الخير وما مسّني السوء ، انْ أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون •

وقصتهما تشير كذلك الى أن الأحكام ألوضعية كلها مبنية على الظواهر العامة ، والله وحده هو الذي يعلم الغيب ويتولى السرائر ، وهكذا تكون أحكامنا خاطئة لجهلنا وقصر عقولنا في ادراك القدر •

ولذلك يقول الرسول[١١] : أُمرتُ أن أحكم بالظاهر •

وفي حديث [١٢] آخر عن أسامة بن زيد أنه قتل رجلاً من (الحُرَقَة)

---

(١١) التفسير الواضح ج١٦ ص٣
(١٢) رياض الصالحين ص١٧٦

وهي بطن من قبيلة جُهينة بعد أن قال : لااله الا الله خوفاً من السلاح [فلما بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم قال لأسامة : أقال لااله الا الله وقتلته ؟ فقلت يارسول الله : قالها خوفاً من السلاح ، قال : أفلا شَقَقْتَ على قلبه حتى تعلم أقالها أم لا ؟ فما زال يكررها حتى تمنّيت أني أسلمت يومئذ]

وهكذا نصيب في حكمنا على ألأمور حيناً ونخطىء أحياناً كثيرة جداً .

ولعل في ذكر قصة الخضر عليه السلام بكاملها كما جاءت في سورة الكهف ، تحقيقاً للغرض منها ، وهو أن المؤمن اذا لم يكن صابراً ، ضل وأخطأ في أحكامه لجهله أسرار ألقدر .

وتحكي القصة أن النبي موسى لقي عبداً من عباد الله الذين آتاهم رحمة من عنده وعلمهم بعض أسرار القدر ، وهو الخضر ، وبدأ الحوار بينهما :

قال له موسى : هل أتّبِعُكَ على أن تُعلّمني مما عُلّمت رُشْداً ؟ أي صواباً .

قال : انك لن تستطيعَ معي صبراً ، وكيف تصبر على مالم تُحِطْ به خُبراً؟

قال : ستجدني ان شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً .

قال : فان اتّبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أُحدِثَ لك منه ذِكراً .

فأنطلقا حتى أذا ركبا في السفينة خَرَقها – أي ثقبها .

قال : أخرقتَها لِتُغْرِقَ أهلَها ، لقد جئتَ شيئاً إمْراً – اي عظيماً .

قال : ألم أقل لك انك لن تستطيعَ معي صبراً ؟

قال : لاتؤاخذني بما نسيت ولاتُرهِقْني من أمري عُسْراً – أي لاتحملني

مالاأطيق .

فانطلقا حتى اذ لَقِيا غلاما فقتله .

قال : أقتلتَ نفساً زكيّة بغير نفس ، لقد جئتَ شيئاً نُكْراً ـ اي منكراً .

قال : ألم أقل لك انك لن تستطيع معي صبراً ؟

قال : ان سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ، قد بلغتَ من لَدُنّي عُذراً .

فانطلقا حتى اذا أتيا أهلَ قرية استطعما أهلَها ، فأبَوا أن يُضَيِّفوهما

فوجدا فيها جداراً يريد أن يَنْقضّ فأقامه .

قال لو شئتَ لأتخذتَ عليه أجراً .

قال : هذا فراقُ بيني وبينك ، سأنبئُك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً :

أما السفينةُ فكانت لمساكينَ يعملون في البحر فأردت أن أعيبَها ، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غَصْباً .

وأما الغلام فكان أبواه مؤمنينِ ، فخشينا أن يُرْهِقهما طُغياناً وكُفراً فأردنا أن يبدلهما ربُهما خيراً منه زكاة وأقربَ رُحْماً .

وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنزٌ لهما ، وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشُدّهماويستخرجاكنزهما رحمةً من ربك ، وما فعلته عن أمري ، ذلك تأويل مالم تَسْطِعْ عليه صبراً]

هكذا تغيب أسرار القدر عن ادراكنا ، فنتخبط في تأويلها وبواعثها وأسبابها ، وهكذا تكون أحكامنا بعيدة عن واقعها ، حتى موسى عليه السلام وهو نبي ورسول وصاحب شريعة لم يفهم سرّ القدر فلم يستطع الصبر بل أستعجل في الحكم فأخطأ في أحكامه .

فما أعلم الخالق وما أجهل المخلوق !!

أما قصة أيوب النبي الصابر ، فقد جاءت في القرآن الكريم قصيرة بليغة في سورة الأنبياء وسورة (صٓ) • وهذا هو أسلوب القرآن في ذكر القصص والأمثال : آيات قصيرة بليغة ـ والبلاغة هي الأيجاز ـ فيها كل المعاني والعبر والمواعظ لمن يتفكر ويتدبر ، وهنا الأعجاز والعظمة في الأسلوب •

ففي سورة الأنبياء :

◉ وأيوب اذ نادى ربَّه ، أني مسَّني الضُرّ وأنت أرحم الراحمين ، فأستَجبنا له فكشفنا ما به من ضُرّ ، وآتيناه أهلَه ومثلَهم معهم رحمةً من عندنا وذكرى للعابدين •

وجاء في سورة صٓ

◉ وأذكر عبدنا أيوب اذ نادى ربَّه اني مسَّني الشيطانُ بِنُصْبٍ (١٣) وعذاب ، أُركضْ (١٤) برجلك هذا مُغْتَسلٌ (١٥) بارد وشراب • ووهبنا له أهلَه ومثلهم معهم رحمةً منا وذكرى لأولي الألباب] •

وهكذا فاز أيوب النبي برحمة الله ، ونال جزاء ايمانه وصبره بغير

(١٣) النصب ـ الداء والبلاء والشر •
(١٤) أركض برجلك ـ حرك رجلك
(١٥) مغتسل ـ الماء الذي يغتسل به • ويرى بعض المفسرين أن الله أمره أن يركض برجله وأن يضرب بها الارض ثابتاً مستقراً غير عابيء بما حوله من أعاصير ، فالعلاج الوحيد عنده هو ما أنزله عليه وهداه الى العمل به فهو يغسل الاوساخ وهو المغتسل البارد والشراب • التفسير الواضح جـ٢٣ ص٥٥

حساب • وهذا شأن كل مؤمن صابر والله رحيم بعباده ، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء • ويضرب لنا الأمثال لنتذكر ونتفكر وهو اللطيف الخبير •

لكن قصة النبي أيوب جاءت مفصلة في كتاب العهد القديم ـ التوراة ـ وفيه (سِفْر)[16] كامل هو سِفْرُ أيوب • وفي السِفر (٤٢) أصحاحاً • والمفكرون الغربيون يصرون على أنه موضوع وأنه ليس من التوراة ، لأنه لايتفق مع العقلية اليهودية وتعصبها ، ولا ينسجم مع ماجاء في أسفار التوراة الأخرى في الأسلوب أو المعاني الروحية والأخيلة الشعرية التي جاءت في سفر أيوب • وهو في نظر نقاد الأدب من أبدع خيال الشعر الديني ، وكأن هذا السِفر رواية تمثيلية تدور حول الله والشيطان والأنسان في البحث عن مشكلة الخير والشر في العالم •

وأرى من الفائدة ذكر قصة النبي أيوب كما جاءت في العهد القديم ـ التوراة ـ • والنصارى يقرأون العهد القديم ـ التوراة ـ والعهد الجديد ـ الأنجيل ـ ويسمون العهد القديم والجديد (بالكتاب المقدس) •

أما فائدة ذكر القصة كما أراها ، فللأسباب التالية :

١ ـ ان الحياة لابدّ لها من الألم ، فبالألم ـ بأنواعه ـ نتعلم الشجاعة ، وبه يقوى الأيمان والصبر وبه تُشْحَذ المواهب ، وبه ترقّ القلوب وتنتشر الرحمة بين البشر ، وبه نتعلم الفضائل وبه نحصل على ما تكافئنا به الحياة • ونحن مدينون له بكل ما فينا من خير ، وتلك حكمة

---

(١٦) السفر ـ جزء من أجزاء التوراة ، والاصحاح : جزء من السفر •

الخالق العظيم • وما هذه القصة الا نموذج لما يحدثه الألم في الأنسان وهو لايدرك سِرّ القدر •

٢ ـ ان المسلم المفكر يجب أن يطلع على كل شيء وعلى كل مايدور حوله في هذا العالم ، وأن لايحصر فكره ونظره بين جدران أربعة لا يتعداها ، وبذلك يكتسب معارف وأفكاراً تزيد في ايمانه ويقينه بالخالق العظيم وبمخلوقه الأنسان وبالعقيدة التي يعتقد ويؤمن بها •

٣ ـ ان كتاب التوراة الذي بين أيدي اليهود كان قد وضعه أحبارهم أنفسهم بعد النبي موسى بزمن طويل ، لذلك فهو ليس كتاباً منزلاً ، وقد رقّعوه بقصص وحكايات وأحاديث ، وجاءوا بقصة النبي أيوب وغيرها وضموها الى كتابهم زاعمين أنها لهم وليست لغيرهم • حتى ان بعض رجال الدين المسيحيين يعترفون بهذا وينكرون حقيقة العهد القديم ـ التوراة ـ لأسباب لامجال لذكرها هنا •

٤ ـ ان هذه القصة الموضوعة لاتخلو من عبرة وموعظة تدعو الى التأمل ، وقد اعتبرها رجال الفكر والأدباء الغربيون من أرقى الآداب العالمية القديمة ومن أول من تحدث من البشر عن سر القدر وعن الألم والأيمان والصبر • ومن هؤلاء الكاتب والمفكر الأنكليزي (توماس كارلايل Thomas Carlyle) في كتابه (الأبطال) والعالم المفكر (جلبرت هايت Gilbert Highet) في كتابه (جبروت العقل) • وارى من الضروري توضيح رأييهما لما فيهما من أشياء جديدة تدعو الى التفكير والتأمل •

فالكاتب والمفكر (توماس كارلايل) يذكر في كتابه (الأبطال) محاضرته

الثانية (عن البطل في صورة رسول) ويقصد به الرسول محمداً صلى الله عليه وسلم . وفي هذه المحاضرة يدافع عن الأسلام وعن الرسول الكريم دفاع انسان مفكر منصف بحيث لانجد بين مفكري الغرب جميعهم مَن أنصفَ الاسلام ورسول الأسلام كما أنصفه هذا الرجل .

وهو يقول عن سِفر أيوب(١٧) [وقد اتفق النُقّاد على أن سفر أيوب أحد أجزاء التوراة ، قد كُتب في بلاد العرب ، وأراني في هذا الكتاب فضلاً عن ماكُتب عنه ، أنه من أشرف ما سَطّر يَراع ودوّنت يد كاتب ، ولا يكاد المرء يصدق أنه من آثار العبرانيين ، لما فيه من عمومية مع شرفها وسموها ، عمومية تخالف التعصب والتحيز ، وحَسْبُ الكتاب شرفاً أنه يضرب بعِرق في كل نفس ويمتّ بصلة الى كل قلب ... والكتاب المذكور هو أول ما جاءنا عن مسألة المسائل وهي حياة الأنسان وفعلُ الله به في هذه الدار ، وقد أتانا في أنصع بيان وأشد اخلاص وأحسن سهولة ... وما أحسب أن في جميع التوراة شيئاً يدانيه فضلاً وقيمة] .

أما العالم المفكر جلبرت هايت(١٨) في كتابه (جبروت العقل) فقد اعترف بأن سِفر أيوب موضوع وليس من التوراة ، ويحلله تحليلاً دقيقاً لانجده عند غيره ، وقد فضلت أن أذكر ما أورده في كتابه بعد أن أذكر ملخص سِفر أيوب لتكتمل الفائدة من حديثه .

وتجري قصة النبي أيوب في التوراة مفصلة ، وفيها حوار طويل جداً ،

---

(١٧) الابطال ص ٦١ وكنت حدثتك عن المؤلف في ص٥٧

١٧ ـ جلبرت هايت ـ ولد في أستكندا في أنكلترا ودرس في جامعة اكسفورد وأنتقل الى الولايات المتحدة للتدريس في جامعة كولومبيا ، وظل فيها استاذا للغتين اللاتينية واليونانية ، وله عدة مؤلفات بعضها مترجم الى العربية .

وقد آثرت اختصارها ونقل بعض الحوار بنصه ليطلع القاريء على ماجاء فيها من عبرة وموعظة :

[نشأ أيوب رجلاً كاملاً مستقيماً ، يتقي الله ويحيد عن الشر ، وصار له سبعة أولاد وثلاث بنات ، ونمت ثروته فأمتلك آلافاً من الغنم والجمال ومئات من البقر والأتان ـ أنثى الحمار ـ وبذلك كثر خدمه وصار أعظم كل من في الشرق • وكان يقدم الذبائح بين وقت وآخر على عدد أولاده تقرّباً الى الله ومخافة أن يزلّوا في قلوبهم عنه •

وذات يوم جاء أبناء الله ليمثلوا أمام الرب ، وجاء الشيطان أيضا •

فقال الرب للشيطان : من أين جئت ؟

فقال الشيطان : جئت من الجولان في الأرض ومن التمشي فيها •

فقال الرب : هل جعلت قلبك على عبدي أيوب ؟ لأنه ليس مثله في الأرض، ورجل كامل ومستقيم ، يتقي الله ويحيد عن الشر •

فأجاب الشيطان وقال : وهل مَجّاناً يتقي أيوب الله ؟ أليس أنك سيَّجت حوله وحول بيته ما لَه من كل ناحية • باركت أعمال يديه فأنتشرت مواشيه في الأرض ، ولكن ابسطْ يدك الآن ومسّ كل ماله فانه في وجهك يُجَدِّفُ عليك •

فقال الرب للشيطان : هو ذا كل ماله في يدك ، وانما اليه لاتمدّ يدك •

ثم خرج الشيطان من عند الرب •

وذات يوم جاء رسول الى أيوب وقال : البقر والأتان جاءها السبئيون وأخذوها وضربوا الغلمان بحد السيف ونجوت انا وحدي •

وبينما هو يتكلم جاء آخر وقال : نار الله سقطت من السماء فأحرقت الغنم

والغلمان ونجوت أنا وحدي لأخبرك •

وبينما هو يتكلم جاء آخر وقال : هجم الكلدانيون على الجمال وأخذوها وضربوا الغلمان بحد السيف ونجوت أنا وحدي لأخبرك •

وبينما هو يتكلم جاء آخر وقال : بنوك وبناتك جاءتهم ريح شديدة وصدمت زوايا البيت فسقط عليهم فماتوا ونجوت أنا وحدي لأخبرك •

فقام أيوب ومزّق جبته وجَزّ شعر رأسه وخرّ على الأرض وسجد وقال : عرياناً خرجت من بطن أمي وعرياناً أعود الى هناك • الرب أعطى والرب أخذ ، فليكن أسم الرب مباركاً •

وذات يوم جاء بنو ألله ليمثلوا أمام الرب ، وجاء الشيطان أيضا •

فقال الرب للشيطان : من أين جئت ؟

قال الشيطان : من الجولان في الأرض والتمشي فيها •

قال الرب : هل جعلت قلبك على عبدي أيوب ؟ لأنه ليس مثله في الأرض، رجل كامل ومستقيم ، يتقي الله ويحيد عن الشر ، والى الآن هو متمسّك بكماله ، وقد هيّجتني عليه لأبتلعه بلا سبب ؟

قال الشيطان : ولكن ابسطْ الآن يدك ومسّ عظمه ولحمه فانه في وجهك يُجدّف[(١٨)] عليك •

فقال الرب : ها هو في يدك ولكن [احفظْ نفسه] •

فخرج الشيطان من حضرة الرب وضرب أيوب بِقُرْح رديء من باطن قدمه الى رأسه • فاحس أيوب بالألم وأخذ قطعة من الخزف ليحتك

(١٨) كلمة يجدف تتكرر في العهدين القديم والجديد ـ التوراة والانجيل ـ ومعناها يكفر بالنعمة او يتكلم على الله بالكفر والاهانة •

بها وهو جالس وسط الرماد • فقالت لـه امرأتـه : أنـت مازلت متمسكة بكمالك ، بارك الله ومُت • فقال لها أيوب : تتكلمين كـلام الجاهلات • هل نقبل الخير من عند الله ولا نقبل الشر ؟

بعد هذا جاءه ثلاثة من أصدقائه يعزونه على مصيبته ، وقعدوا عنده سبعة أيام بلياليها ، وعندما أشتد عليه المرض ظهرت عليه الكآبة ، وكانت عظيمة جداً ، وعندئذ صار أيوب يتحدث بحديث طويل وطويل ، وكله تذمر من الحياة ومن ثقل المصيبة ، وصار يلعن اليوم الذي ولد فيه ومما قاله :

[لِمَ لم أمُت من الرحم • عندما خرجت من البطن لِمَ لـم أسـلم الروح ، حينئذ كنت نمت مستريحاً •

ليت كَرْبي وُزِن ومصيبتي رُفعت في الموازين جميعها لأنها أثقل من رمل البحر •

ماهي قوتي حتى أنتظر وماهي نهايتي حتى أُصبِّر نفسي ؟

هل قوتي قوة الحجارة وهل لحمي نحاس ؟

اذا اضطجعت أقول متى أقوم • أالليل يطول وأشبع قلقاً حتى الصبح •

لبس لحمي الدود مع التراب وجلدي تقبّض •

ان حياتي انما هي ريح ، وعيني لاتعود ترى خيراً •

أتكلم بضيق روحي وأشكو بمرارة نفسي]

ثم يُخاطب الرب بما حل به كرجل مؤمن ومستقيم بينمـا الأشـرار يسرحون ويمرحون ، وعندهم كل شيء وهم في أمان وخير ورفاه •

ويدور حوار الأصدقاء الثلاثة معه ويلومونه على جزعه وحديثـه ويذكّرونه بعظمة الخالق وقدرته ومشئته ليبعثوا فيه الصبر على البـلاء •

ويذكرونه بأن هذا البلاء تكفير عن الذنوب والخطايا ، ويطول الحديث بينه وبينهم ويأخذ أكثر ما في (سِفر أيوب) • وفي أحاديثهم وحوارهم كلما يخطر ببال المؤمن المفكر في عظمة الله وجلاله وقدرته وقوته ، وضعف الأنسان أمام الأقدار وأسرارها ، وفضل الخالق على عباده بما ينعم عليهم •

ثم يكف هؤلاء الأصدقاء الثلاثة عن مجاوبة أيوب لكونه باراً في عيني نفسه ويؤكد أنه بريء وأن حكمة الله فوق ادراك الأنسان •

ثم تمرّ (العاصفة) ويكلمه الرب من خلالها معاتباً أيوب على ما قاله ومما قاله له :

[من هذا الذي يظلم القضاء بكلام بلا معرفة ؟

أين كنتَ حين أسست الأرض ؟ من وضع قياسها ؟ على أي شيء قرّت قواعدها ؟ ومن وضع حجر زاويتها ؟

هل انتهيت الى ينابيع البحر أو سرت في أعماقه ؟

هل تكشّفت لك أسرار الموت وعرفت مداخله ؟

تكلمْ إن كنت تعلم ، أين يسكن النور وأين مقام الظُلمة ؟

هل أنت تنظم الثريا وتنزل النجوم في منازلها ؟

أتنادي السحب فتهطل بالمطر الغزير أو تستدعي البرق فيجيبك ؟

مَن وضع في باطن الأرض الحكمة ؟ وفي الفؤاد الفطنة ؟

هل أنت الذي يهدي الأسد الى فريسته ويشبع أشباله ؟

من يرزق الغراب طعامه اذا نَعَبت ـ صوّتت ـ فراخه الى ربها طالبة قوتها ؟]

وعلى هذا السياق من الاسئلة المحرجة يحادث الرب عبده أيوب • فيجيب معتذراً نادماً ومما قاله :

ها أنا حقير فماذا أجاوبك ؟ وضعت يدي على فمي • مرة تكلمت فلا أجيب ومرتين فلا أزيد ••• قد علمت أنك تستطيع كل شيء ولا يعسر عليك أمر ، فمن ذا الذي يخفى القضاء بلا معرفة ؟ ولكنني قد نطقت بما لم أفهم ، بعجائب فوقي لم أعرفها ••• بسمع الأذن قد سمعت عنك والآن رأتك عيني ، لذلك أرفض وأندم في التراب والرماد]

وبعد هذا الحوار رضي الرب عن أيوب ، وزاد عليه كل ما كان له ضعفا وعاش مائة وأربعين سنة ، رأى بنيه وبني بنيه الى أربعة أجيال] •

— ٥ —

وقد حظي [سِفر أيوب] بعناية كبيرة من رجال الأدب والفكر والدين في الغرب ، وذهبوا فيه مذاهب شتى ، لأنه صيغ كما يقولون بأسلوب يختلف عن كل ما جاء في التوراة ، وهم لايدرون واضعه •

وهذا حديث العالم المفكر [جلبرت هايت] الذي حدثتك عنه قبل أن أذكر قصة أيوب ، فهو يذكر في كتابه (جبروت العقل) في فصل (صوت العاصفة) ويقصد به العاصفة التي تحدّث من خلالها الرب الى أيوب كما تقول التوراة ، ويأتي الى حديث الرب وأسئلته لأيوب ويقول[20] [وكأن الأسئلة جعلت تتعاظم حتى صارت اعلاناً للقوة والعجب والمجد • والاعلان يحدّث بأن الكون ليس خيّراً أو شريراً ولا هو عادل أو ظالم • الكون لُغز ، وكما تنطوي الغمامة على القوة فالكون أيضا يحتوي على عظمة ومجد •••

---

(١٩) جبروت العقل ص ٩٥

فينبغي للأنسان أن يسأل فهذا طبيعته ، وينبغي للأنسان أن يؤمن بأن الله خيّر ، وانْ تساءل كيف يكون ذلك ؟ أما واجبه الأعلى قبل أن يسأل أو أن يؤمن ، فهو أن يستشعر المهابة والخشوع •

الأنسان صغير وكون الله عظيم • الأنسان محدود في الزمان والمكان، وكون الله لاحدّ له ولا نهاية • يستطيع الأنسان أن يعرف أشياء قليلة وأن يلحّ في السؤال ، فالكون حافل بأشياء لايُتاح له أن يعرفها ، وفيه من من الأشياء الدقيقة المعقدة الباهرة مالايستطيع أن يعرف أو يدخله في نطاق خبرته ••• وكذلك ينتهي سفر أيوب ، وهو من كُتب التخيل الشعري الديني ، بشعور ألدهشة والأعتراف بضعف الأنسان وقصوره • ولايعلم أحد من كتب ذلك السفر ، بل يلوح أن فئة من الكتاب أشتغلت به ، ومن البّين أن عبقريين اثنين وضعا قسميه الرئيسين ، أحدهما : ألّف البيان الذي يعلن العجز عن حل مشكلة الألم وتذمر الأنسان من الله عز وجل •

وثانيهما : رد عليه بأن أعلن في نبرات نبوية حقاً : أن الكون كله فوق طاقة المعرفة البشرية ، ومع ذلك فهو جدير بالتسبيح وألابتهال ، ففي وُسْع الأنسان أن يفهم بعضهوأن يتكهن ببعضه ،ولكن لن يكون في وُسْعه أن يعرف كل شيء]

وهكذا تبقى الحياة لُغزاً محيّراً ، يعيش فيها الأنسان بأحلامه وآماله وظنونه وجهله ، ولوعرف الحقيقة لثقلت عليه الدنيا وما أستطاع ان يعيش ساعة واحدة ، وعندئذ تفنى الدنيا وما فيها •

فما أعظم هذا الكون !

وما أجهل الأنسان بأسرار القدر !

الأنسان والعلم

أن أول آية نزلت من القرآن الكريم •

◉ اِقرأ بأسم ربك الذي خلقَ ، خلقَ الأنسانَ من عَلَق ، [1] ، اقرأ وربُكَ الأكرمُ الذي علّم بالقلم ، علّم الأنسان مالم يعلم •

أما بقية سورة [2] (العَلَق) فالظاهر أنها نزلت بعد ذلك •

وقد جاءت كلمة (العلم) وما يشتق منها في ٤٤٦ آية • وهذا التركيز على العلم خير دليل على ماله من قيمة وأثر في كل شيء في هذه الدنيا •

فبالعلم يعرف الأنسان ألله ، ويدرك حقائق الحياة ويطلع على أسرار ألكون وبالعلم يصعد الى الفضاء ويغوص في أعماق البحار ليدرك عظمة الخالق ويطلع على آياته وعجائبه • والعلم نافذة على العالم ، منها يطل الأنسان على الكون وبدونه تعمى بصيرته ويتيه في الضلال ، ولا يستوي الأعمى والبصير وجاءت آيات كثيرة بهذا المعنى :

◉ وهو الذي جعل لكم النجومَ لتهتدوا بها في ظلمات البرِ والبحر ، قد فصّلنا الآياتِ لقوم يعلمون •

◉ هو الذي جعل الشمسَ ضياء والقمرَ نوراً ، وقدّره منازلَ لتعلموا عدد السنينَ والحسابِ ، ماخلقَ اللهُ ذلك الاّ بالحق ، يفصّل الآيات لقوم يعلمون •

◉ ومن آياته خلقُ السماوات والأرض واختلافُ ألسنتِكم وألوانِكم ، ان في ذلك لآيات للعالمِين •

◉ وتلك الأمثالُ نضربها للناس ، وما يعقلها الاّ العالمِون •

---

(١) العلق ـ الدم الغليظ الجامد

(٢) التفسير الواضح ج ٣٠ ص ٦٤ • واول سورة نزلت كاملة هي سورة الفاتحة

● ويرى الذين أوتو العلم ، الذي أُنزل اليك من ربك هو الحق ويهدي الى صراط العزيز الحميد •

● بل هو آيات بّينات" في صدور الذين أوتو العلمَ وما يجحد بآياتنا الا الظالمون •

بهذه الآيات وغيرها كثير ، ركز الخالق العظيم على قيمة العلم والعالمين في ادراك عجائب الكون وفهم حقائق الحياة ، وبغير العلم يفقد الأنسان البصيرة ويتيه ويخسر حياته وسعادته والغاية التي خلق من أجلها •

فلو انتبه الأنسان ـ مهما حصل من العلم ـ الى ما حوله وحاول تحريك عقله ، لأدرك مالم يكن قد أدركه ، وبذلك اطمأنت نفسه وأستمتع بالحياة القصيرة الأجل التي تمرّ مرّ السحاب •

وهكذا جاءت الآية في سورة (طه) ١١٤ تطلب من الرسول الكريم الدعوة الى الأستزادة من العلم •

● فتعالى الملكُ الحق ، ولا تعجلْ بالقرآن من قبل أن يُقضى اليك وَحْيُه ، وقل ربي زدني علماً •

وطلبُ الزيادة من العلم من واجب كل انسان ، وهو أمر من الخالق على المخلوق يجب أن يقوم به بكل مالديه من طاقة ، لتتفتّح عيناه فيرى طريقه ودربه في هذه الحياة وليهتدي الى الطريق المستقيم •

والعلم دائماً وأبداً مقرون بالعمل ، وهو الحافز القوي الذي يدفع الأنسان الى أن يعيش عاملاً مفكراً متعلماً ، يؤدي رسالته في هذه الدنيا ليصل شاطيء السلامة في العالم الثاني • وما أصوب قول العالم الصوفي أبي حامد الغزالي :

علمٌ بلا عمل جنون وعملٌ بلا علم لايكون !

والعلوم تتجدد وتتطور على مدى العصور ، لأن الخالق العظيم أوجد في هذه العوالم أشياء لايدركها عقل الأنسان ، فظهر علم النبات والحيوان والفلك والمعادن والبحار والضوء والصوت والذرة والكهرباء والكيمياء والألكترون .... وعلوم أخرى لا يحصيها عدد ولها أصول وفروع .
ومن يدري ما سيظهر في المستقبل من العلوم التي يعلّمها الخالق لخليفته الأنسان على هذه الأرض ، وقد علّم الأنسان ما لم يعلم ؟

وكلما ازداد الأنسان علماً ازداد ايماناً وشعوراً وصلة بالخالق العظيم، فهذا العالم البريطاني توماس هكسلي [٣] Thomas Huxley [كان من أشد المتحمسين للعالم (دارون Darwin)[٤] ونظرية (النشوء والارتقاء) ودعوته الى أن الأنسان أصله من مجموعة القرود ، وقد انعكس هذا الحماس على أبحاثه ومؤلفاته العلمية ، ولكنه سرعان ما تحول عندما بدأ يرى اللهَ في كل شيء حوله ، الى أن تجسّد ايمانه أخيراً في كتابه (مكان الأنسان في الطبيعة) قال فيه يحدثنا فيما رآه من قدرة الخالق : في شروق الشمس رأيت أعظم مايمكن أن يراه انسان آمن بالله ... وهل هناك أروع من تلك اللحظة التي يظهر فيها هذا القرص الهائل من نفس المكان في نفس الوقت كل يوم ، فيبدّد بضوئه الظلام الذي يحتويه كلما غربت عنا الشمس ؟ ان الله والعلم لا يفترقان ، انهما دائماً على موعد

(٣) توماس هكسلي عالم بريطاني شهير ١٨٩٥ م عن ـ مجلة العربي الكويتية عدد ٢٠٤ تشرين الثاني ١٩٧٥ م من عنوان : طرائف غربية ، لقاء مع الله والعلماء .

(٤) دارون ١٨٨٢ م عالم بريطاني ، يقول : ان تطور الاجناس نتيجة انتخاب طبيعي تقوم به الطبيعة لفائدة الاجناس الاكثر أهلية للبقاء . وقد ارجع اصل الانسان الى مجموعة القرود عديمة الذيول ومنها الانسان .

وفي لقاء في كل تجربة ، في كل بحث يقوم به العلماء للكشف عن أسرار هذا الكون] •

هذه الشمس أنارت الكون وأنارت عقل رجل عالم مفكر فأهتدى الى الصواب • والشمس أكبر من الأرض بحوالي ألف ألف مرة !!

فهل نحن متأملون مبصرون ؟

وهكذا وبفضل العلم صرنا نرى كثيراً من الأمور التي نؤمن بها ويراها غيرنا من (الغيبيات) ، أنها حقائق علمية بأدلة وتجارب وشواهد • والعلم لا يزال متطلعاً الى الأفق البعيد البعيد ، والله أعطى الأنسان العقل والخيال والأرادة ومواهب أخرى ليبحث ويخترع ويكتشف •

لذلك فان الفرق بين المؤمن العاجز والمؤمن العالم ـ كما يقول أحد العلماء ـ هو أن المؤمن العاجز يقول : لانعرف فلنؤمن ، أما المؤمن العالم فيقول : لانعرف فلنبحث ، وشتان بين الأثنين •

ولهذا بحث العلماء عن عظمة الله في الأنسان ، فتحدثوا عن [النُطْفَة] وتركيبها وما فيها على قدر ماتستطيع بحوثهم وتستوعبه عقولهم ، وتحدثوا عن العين وما فيها من عجائب في التقاط الصور ، وعن الأذن وما فيها من أعصاب تلتقط كل نغمة وكل صوت وتميز وتعرف وتقارن وتطرب •

ودرسوا عمل المعدة ، وقالوا : انها أعظم معمل في العالم ، وشرحوا كيف تتلقى الأغذية وتحوّل الصالح منها بعمليات كيميائية الى ما يحتاجه الجسم من المواد الضرورية ، ثم يتوزع الى الخلايا ، الى غير ذلك من العمليات العجيبة الدقيقة لهذا الجهاز العجيب •

ويقول العالم أ• كريسي موريسون(٥) A. Cressy Morrison

(٥) كريسي موريسون ـ رئيس المجمع العلمي في أمريكا

في كتابه (العلم يدعو الى الأيمان)[٦] : [ان المعدة معمل ينتج من المواد أكثر مما ينتجه أي معمل ابتكره ذكاء الأنسان] وقد أثبت هذا العالم ببحوثه أن العلم الحديث يثبت وجود الله ووحدانيته ، وأنه باريء الكون وخالق كل شيء وينتهي الى الأيمان •

وأستمر العلماء في البحث عن كل ما في الأنسان ، وقد حاروا وعجبوا من الدماغ ووظائفه وأعماله وتركيبه ، ولا تزال كل الجهود المبذولة في بحوث العلماء قاصرة عن معرفة القليل عن هذا الجهاز العجيب والعطية السماوية التي في رأس الأنسان ، فقالوا :

[هذا الكون عجيب !

عجيبة سماؤه وعجيبة أرضه !

ان أعجب مافي الأرض الأنسان !

وأعجب مافي الأنسان رأسه !

وأعجب مافي الرأس الفكر !]

وأنتقلوا الى الحيوانات ليطلعوا على غرائزها وطريقة عيشها وتناسلها وهجرتها ، فوجدوا العجائب وألغرائب فيما يدبّ على الأرض وما يطير في السماء وفيما تحويه البحار ، ومثل هذا رأوا في نبات الأرض •

ثم درسوا معادن الأرض وخصائصها وأستخرجوها وسخروها فيما ينفعهم ، وتحدثوا عن الأرض والحكمة العظيمة في دوراتها وميل مِحْوَرها ، وقالوا : لولا ميل محورها ماكان صيف وشتاء ولا ربيع وخريف •

ثم عالجوا الذرة ودرسوا تركيبها ، وكيف تنفلق وماذا ينتج عن

---

(٦) العلم يدعو الى الايمان ص ١٥٢

انفلاقها ، ثم صعدوا الى السماء وحطوا على القمر ، وبَعُد خيالهم الى الأجرام البعيدة ليكتشفوا ويتعلموا ويستفيدوا ويفيدوا •

وفي كل تجربة من هذه التجارب الكثيرة ، يردد الأنسان العالم المؤمن :

ما أعظم الخالق !

وما أعجب المخلوق !

◉ شَهِدَ اللهُ أنه لا الهَ الا هو ، والملائكةُ وأولو العلم قائماً بالقِسْطِ ، لا اله الا هو العزيز الحكيم •

لذلك صار كثير من العلماء ينادون (بأن العلم يدعو الى الأيمان) ويشرحون ويدعون اليه ويحثون الناس على التفكير والتأمل فيما خلق الله وفي نفوسهم ليؤمنوا وليزدادوا ايماناً •

وهذا الطبيب الشهير (برنارد) زارع القلوب في جنوب أفريقيا ، لايقوم بعملية جراحية في زراعة قلب الا بعد أن يخشع في صلوات يستلهم بها القدرة على العمل والعطاء في هيكل المسيح المخلّص ، ومثله يفعل كثير من الاطباء الجراحين الذين يؤمنون بالقوة الألهية التي تعينهم على عمل الخير للأنسان على اختلاف أديانهم ومذاهبهم •

وقد أذاعت وسائل الأعلام جميعها أن أول عمل قام به روّاد الفضاء حين حطوا على القمر ، ترتيل آيات من الأنجيل الذين يؤمنون به •

أما أولئك الذين تحجرت عقولهم وضعفت بصائرهم وقست قلوبهم ، فهم معرضون مجادلون في أمور لايفقهون معناها ولا يدركون ما يقولون • وقد جاء في القرآن الكريم :

◉ ومن الناس مَن يجادل في الله بغير علم ولا هُدى ولا كتاب مُنير •

◉ ألم تروا أن اللهَ سخّر لكم مافي السماوات وما في الأرض ،

وأسْبَغَ عليكم نِعَمه ظاهرةً وباطنه ؟ ومن الناس من يجادل في الله بغير علمٍ ولا هدى ولا كتاب مُنير •

● انما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ ان الله عزيز غفور •

وجاءت آيات كثيرة تشير الى أن (أكثر النـاس لايعلمون) وبسبب جهلهم ضلوا وأبتعدوا عن التأمل فيما خلق الله على كثرة ماورد في القرآن من آيات تحرك عقل كل انسان له أدنى ادراك وفهم ، وعلـى الرغـم مما يحيط بالأنسان ، أي انسان ، مما خلق الله وأبدع في خلقه ، ويكفيه أن يتأمل في نفسه وجسمه وما في سمعه وبصره ، وفي حفرة التراب التـي سيكون فيها بعد مجيء الأجل •

● لَخَلْقُ السماوات والأرض أكبرُ من خَلْقِ الناس ، ولكن أكثر النـاس لايعلمـون •

● ألا ان لله ما في السماوات والأرض ، ألا ان وَعْدَ اللهِ حقٌ ، ولكن أكثرهم لايعلمـون •

● وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم ، لايبعث الله مَن يموت ، بلى وعداً علينا حقاً ، ولكن أكثر الناس لايعلمون •

— ٢ —

أما أحاديث الرسول الكريم في العلم فكثيرة ، فهو يرفع شأن العالم الى أرفع الدرجات ويفضله على العابد ، ويراه مجاهداً في سبيل الله اذا خرج في طلب العلم ، ومن أحاديثه الشريفة(٧) :

١ ـ عن أبي الدَرْداء رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله (ص) يقول : من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً ، سهل الله له طريقاً الـى

---

(٧) الاحاديث الثلاثةمن كتاب (رياض الصالحين) ص ٤٥٦

الجنة ، وان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما صنع ، وان العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض ، حتى الحيتان في الماء • وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب • ان العلماء ورثة الأنبياء ، وان الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً ، انما ورّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر •

٢ ـ وعن أبي أُمامة عن الرسول (ص) قال : فضلُ العالم على العابد كفضلي على أدناكم ، ثم قال رسول الله : ان الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ، ليصلون على معلمي الناس الخير •

٣ ـ وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله (ص) من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع •

فهل هناك منزلة كمنزلة العالم في نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

وللأمام علي عليه السلام أقوال كثيرة في العلم ، ومنها كما جاء في كتاب (نهج البلاغة)[٨] :

ـ اذا أرذلَ الله عبداً حَظر عليه العلم •

أي اذا جعله رذيلاً حرمه من العلم •

ـ وقوله : لاتجعلوا علمكم جهلاً ويقينكم شكاً • اذا علمتم فأعملوا واذا تيقنتم فأقدموا •

ـ وقوله : كل وِعاء يضيق بما جُعِلَ فيه الا وعاء العلم فانه يتّسع •

ـ وقوله : العلم علمان : مطبوع ومسموع ، ولا ينفع المسموع اذا لم يكن المطبوع •

---

(٨) كل ماذكرته من أقوال الامام علي تجده في الجزء الثالث من كتاب نهج البلاغة في صفحات متفرقة •

أي ان مطبوع العلم مارسخ في النفس من الأعمال ومسموعه هـــو منقولــه ومحفوظه •

ـ وقوله : العلم مقرون بالعمل ، فمن علمَ عملَ ، والعلم يهتف بالعمل فانْ أجاب والا أرتحل •

ـ وقوله : منهومان لايشبعان : طالب علم وطالب دنيا •

والمنهوم : هو المولع بشيء لايشبع منه •

ـوقولهـ ماأخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا ، حتى أخذ على أهل ألعلم أن يعلّموا •

ـ وقال الأمام عليه السلام لِكُمَيْل بن زياد النخَعي : ياكُمَيْل اِبن زياد ، معرفة العلم دين يُدان به ، به يكسب الأنسان الطاعة في حياته وجميلَ الأُحدوثة بعد وفاته • والعلم حاكم والمال محكوم عليه • ياكميل : هلك خُزّان الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقــون مابقــي ألدهر ، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة •

ويرى الأمام البخاري في (باب العلم قبل القول والعمل) لقوله تعالى في سورة (محمد) الآية ١٩ :

◉ (٩) فاعلمْ أنه لاالهَ الا اللهُ ، وأستغفرْ لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات•

فبدأ بالعلم ، وأن العلماء هم ورثة الأنبياء ، ورّثوا العلم ، من أخذه أخـذ بحظ وافر ، ومن سلك طريقاً يطلب به علماً سهل الله له طريقاً الى الجنة]

* * *

هذا هو الأسلام منذ نشأته يحث على العلم والتعلم والجهاد في طلبه •

فأين نحن من كل هذا ؟؟

---

(٩) جواهر البخاري ص٥٢

وفي دنيانا هذه ، لما طغت المادة على الناس وأنقطعت صلتهم بالسماء أساؤوا الى العلم والعلماء ، وأستغلوا العلم الذي هو لخير الأنسان أبشع استغلال لتحقيق شهوات نفوسهم وما فيها من شر وسوء ، وبذلك فقدوا انسانيتهم وعاثوا في الأرض فساداً •

واذا كان الخالق العظيم قد جعل في كل شيء بذرة لضده ، فهم أستغلوا الضد وتركوا جانب الخير من العلم الذي علمه للأنسان ليعيش في نعيم وسعادة •

أنهم استغلوا معرفة العلماء بصفات المعادن فأنتجوا المدافع والقنابل والصواريخ وغيرها ليقتل الأنسان أخاه الأنسان •

وأستغلوا الذرة لأبادة الألوف من البشر ، وربما سيستعملونها الأبادة الجميع •• وأستغلوا المطابع لأفساد العقول وتزجية الوقت بما لايهذب نفساً ولا يوقظ عقلاً ولايفتح عيوناً •

وأستغلوا خيرات الأرض فملأوا بطونهم وأشبعوا كلابهم وقططهم وأجاعوا عباد الله •

وأستغلوا المعرفة بطباع الأنسان فغسلوا عقول البسطاء وساقوهم كالأنعام • الى آخر ما أستطاع الأنسان الشرير أن يعمل ويتصرف في سبيل رغباته وشهواته بغير رادع أو وازع من ضمير أو شعور انساني •

– ٣ –

وما دمنا نتحدث عن استغلال الأنسان لأخيه الأنسان ، فهذا نموذج جديد لما فعله الأنسان بأخيه بواسطة العلم ، فأستعمره وأذله ومص دماءه بدلاً من أن يفتح عيونه ويرشده الى طريق الحياة الحرة السعيدة •

فقد ظهر في القرن الثامن عشر علم هو (علم الأنسان) الأنثروپولوجي Anthropology ثم تطور بفروعه ونظرياته • وهو من العلوم الأجتماعية الذي [يدرس كل ما أهملته العلـوم الأخـــرى فيما يخص الظواهر البشرية ليتبنّاها كجزء من دراسة الأنسان • وهذا العلم يجمـــع ويدرس خواص الأنسان الطبيعية والجسمية وجنسه وعرقـه وبيئتـــه وعلاقاته الأجتماعية وثقافته وحضارته ، مهما كان مستواها ، ونظرته الـــى الخالق والى ألكون] •

وكان الناس في القديم يعرفون بعض الشيء عن بعض الشعوب مـــن كتب الرحلات والأسفار ، أما الآن فقد أصبح هذا الموضوع علماً لهتجاربه ودراساته وعلماؤه المختصون •

هؤلاء العلماء يسيرون في طول الأرض وعرضها يدرسون الشعـــوب البدائية وشعوب العالم الثالث ، ويعيشون معهم ويتعلمون لغاتهم ويطلعون على حضارتهم وصنائعهم ومعتقداتهم وأجناسهم ومذاهبهم ويقدمـــــون تقاريرهم ودراستهم الى المهتمين بشؤونهم من الساسة أو الجامعات ويؤلفون الكتب لتكون المرجع لمن يريد الأطلاع أو البحث أو الدراسة •

وهذا العالم الثالث ، ولبعضه حضارات قديمة ــ ونحن منه ــ درسـوه دراسة متقنة من كل جوانبه ، ومن كل ما لايخطر على بال وعقول شعوبه، وهم يعلمون عنه أكثر مما يعرف هو عن نفسه ، وان كنا غافلين عن كـــل مايجري حولنا في هذا العالم •

وقد أصبح (علم الأنسان) في خدمة الأستعمار في أكثـر بحوثـــه • فعلماء الأنسان الأنكليز هم الذين ابتكروا نظام [١٠] الحكم (غير المباشر)

---

(١٠) الانسان في المرآة ص ٣٣٦

للشعوب المستعمرات • وبذلك أستخدموا أبناء البلاد لأدارة الحكم الذي يريدونه هم ، ويوافق مصالحهم • ومعظم ماتقوم به الحكومات الغربية في سياستها وصلهتا بالشعوب يعتمد على دراسات علماء (علم الأنسان) • وفي [11] الحرب العالمية الثانية عمل هؤلاء العلماء في مراكز مرموقة في وزارة الخارجية البريطانية وفي الحربية والأستعلامات وفي ميادين القتال طوال فترة الحرب ، وكان أحد المختصين بعلم الأنسان مشاوراً سياسياً لكل منطقة الشرق الأوسط •

ومثل هذا فعلت الولايات المتحدة الأمريكية ، وبذلك أصبحت دراسة (علم الانسان) لازمة للمرشحين للعمل في وزارات الخارجية لمعظم الدول الكبرى •

وهكذا أصبحت حياة الأنسان في هذه الدنيا مكبّلة بألف قيد وقيد وقد تولاها الأشرار من بني الأنسان وأستخدموا العلم الذي علمه الله وجعله لخير الأنسان ، في سبيل الشر وتحطيم أخيهم الأنسان •

فعلم الأنسان الذي كان من الممكن أن يوقظ الشعوب وينبههم الى طرق الخير ويدفعهم الى تحسين حالهم ويبعث فيهم التفكير بما يجب ان يعملوا ليعيشوا حياة طيبة ، صار أداة بيد الأشرار يستخدمونه في إنامة الشعوب ومص دمائها وخيراتها •

لذلك ضَجّ الطيبون من العلماء ورجال الفكر المخلصون وكل الحريصين على أخيهم الأنسان ، وصاروا ينادون ويتحدثون ويؤلفون لأيقاف هذا التيار الخطر ، وليعود الأنسان الى نفسه ، فلا تحطمه وتستعبده مكتشفات العلم ودراسات العلماء ومخترعاتهم • والعلم هو لخير الأنسان

---

(١١) المصدر السابق ص ٣٣٢

وسعادته وأستعماله في سبيل الشر جريمة لايمكن السكوت عنها •

وهم يرون أن تقدم العلوم لم يرافقه ايمان وتطور ورقي اجتماعي وخلقي وتربوي • وهذا الفارق الكبير هو الذي جعل الأنسان ينحرف عن طريق الخير • لذلك فهم يرون أن حضارة الأنسان في خطر ، وربمـــا رجعنا الى البربرية اذا ماأسمررنا على هذا المستوى ، وبذلك تنقلب نعمة السماء الى نقمة مميته • اذ ماقيمة هذه المظاهر والجمال والرفاه اذا مافقد الأنسان نفسه وهي أثمن شيء في الدنيا ؟

وبدأ بعض العلماء والمفكرين يحملون على العلم وعلى اختراعاتـــــه وأكتشافاته ويحمّلونه كل هذا التردي والرجوع الى الوراء

ومن الغريب أن العالم الرياضي الفيزيائي الألماني الشهير (إنيشتاين Einastein وهو أحد الأوائل الذين وضعوا أسس القنبلة الذرية يقول [١٢] [لم يُستخدمالعلمحتى أليوم الا في خلق العبيد •ففي زمن الحرب يُستخدم في تسميمنا وتشويهنا ، وفي زمن السلم يجعل حياتنا قلقة منهوكة مرهَقة • كنا ننتظر أن يستعين الناس بالعلوم في الأنصراف الى الأعمال العقلية فينالوا بذلك أكبر حظ من الحرية ، ولكن بدلاً من ذلك صيّرتهم العلوم عبيداً للألة •• ويمضي أنيشتاين في حملته ويقول : أعمال جديرة باللعنات]

ثم يأتي العالم (الكسيس كاريل) ويقول في كتابه (الأنسان ذلـــك المجهول) : [[١٣] ان الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعـــب لأنها لاتلائمنا ، فقد أُنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقة ، اذ انها تولدت

---

(١٢) دفاع عن العلم ص ٣٦

(١٣) الانسان ذلك المجهول ص ٣٨ ، ٦٠

من خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم وعلى الرغم من أنها أُنشئت بمجهوداتنا ، الا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا ...

اننا لن نصيب أية فائدة من زيادة عدد الأختراعات الميكانيكية ، وقد يكون من الأجدى أن لانُضفي مثل هذا القدر الكبير من الأهمية على اكتشافات الطبيعة والفلك والكيمياء ، فحقيقة الأمر أن العلم الخالص لايجلب لنا مطلقا ضرراً مباشراً ، ولكن حينما يسيطر جماله الطاغي على عقولنا ويستعبد أفكارنا في مملكة الجماد ، فانه يصبح خطراً ، ومن ثَمّ يجب أن يحوّل الأنسان اهتمامه الى نفسه والى السبب في عجزه الخلقي والعقلي اذ ماجدوى زيادة الراحة والفخامة والجمال والمنظر وأسباب تعقيد حضارتنا اذا كان ضعفنا يمنعنا من الأستعانة فيما يعود علينا بالنفع ؟

— ٤ —

هذه الحملة وأشباهها جعلت بعض المفكرين يدافعون عن العلم واكتشافاته وما يقدمه للأنسان من خدمات ، فقد الف العالم المفكر (١٤) [البيربابيه Albert Bayet أستاذ الأخلاق والأجتماع في جامعة السوربون في فرنسا كتابه (دفاع عن العلم) يقول فيه :

[(١٥) مما يؤسف له أن هذه الكشوف التي يزيد عددها منذ قرن

---

(١٤) البيربابيه — استاذ الاخلاق والاجتماع في جامعة السوربون ، له عدة مؤلفات في علم الاجتماع الاخلاقي وعلم الاجتماع التشريعي شارك رجال المقاومة ضد النازية في الحرب العالمية الثانيه واخيرا اختص بتدريس علم الاخلاق .

(١٥) دفاع عن العلم ص ٢٣

من الزمان زيادة رائعة ، انما بزغت في مجتمعات ليست (مجتمعات حكماء)
فنتج عن ذلك أنها أُستخدمت تارة للخير وتارة للشر •

قد يكتشف العالم البيولوجي أثر مادة على بدن الأنسان ، فيستخدم الطبيب ذلك الأثر في العلاج ويستخدمه المجرم في القتل •

وقد يكتشف عالم الطبيعة القوانين التي تقوم عليها السينما والراديو ، فيستخدمها بعض الناس لأذاعة الحق والجمال ، ويستخدمها الآخر لنشر الأكاذيب والقبائح •

وكذلك القنبلة الذرية ، فقد قام جُلّة من العلماء بكشف وسيلة يسيطرون بها على الطاقة الكامنة في الذرة ، فأستخدمها بعض الناس لصنع معدات القتل والدمار ، وقد يستخدمها آخرون غداً لرفع مستوى حياة الناس الى منزلة باهرة •

اذن فليس العلم هو الآثِمَ ، وانما يحمل العلم في نفسه مثلا أعلى ومذهباً أخلاقياً لواهتدينا الى اتباعهما لأُوتينا نُبلاً وسعادة]

وهذا العالم بعد أن يتحدث عن أخلاق العلم ، وأن العلم لاينـاوي الدين والأخلاق وليس هو غريباً عنهما ، ويتحدث عن كرامة الفكر وعن مبدأ الوفاق الذي يسببه العلم والبحث العلمي في جمع وجهات النظر بين الناس ، وعن مبدأ الحرية والتسامح ، الى غير ذلك مما له علاقة بالعلم والأنسان ، ثم ينهي كتابه معترفا بحقيقة ما يجري في عالمنا فيقول :

[(١٦) ، لقد اختلطت باللوحة بعض الظلال • بسط الذهن فتوحه وغزواته ولكن تخلفت الاخلاق عنه ، وزاد حظ الناس من المعرفة ولكنهم

---

(١٦) دفاع عن العلم ص ١٤٩

لم يصبحوا أقل مما كانوا بغياً وعدواناً : تقسيم الأرض بين الشعوب وتوزيع الخيرات بل تقسيم الثقافة العقلية ، مازال هذا كله ترفرف عليه راية العنف والجور . ومن أشنع المفارقات أن عصر العلماء ـ ويعدد منهم سبعة علماء معاصرين ـ هو العصر الذي يرى بلادنا الغربية وقد دنّستها أول الأمر حرب ، هي أشد الحروب شناعة ، ثم دنستها سيطرة هي أشد السيطرات خِسّة ، وهي (سيطرة المال) .

ولكن الذي أود أن أكون قد بينته هو أن العلم يتضمن مثلاً أعلى ، ولو تم لهذا المثل الأعلى النصرُ مع العلم لدفع كل هذا البلاء الأخلاقي ، ولأستطاع أن يرد المال الى مكانه وأن يضع الذهن في منزلته ، وان يطالب بالتحرر الأقتصادي لاكغاية في ذاته ، بل كشرط للتحرر العقلي ، وان يؤلف بين الناس في الحرية وبالعقل ، بحيث ينال الجميع حظوظهم في معارك الفكر ومباهجه ...

ولست أبغي أن أعتذر عن العلم ، اذ فتح لنا آفاقاً واسعة ، بل ينبغي فيما أعتقد أن نشكر له يده ، لانه لم يرسم حداً لِتَشَوّفنا الى الحق ... كلا ان العلم الذي يسوقنا الى طلب الحق دون أن نقف عند حدّ ، لا يمتّ بسبب الى حكمة هزيلة ، أو حكمة تُعنى بالمصالح الخسيسة ، وانما هو من بين المبتدعات التي حققتها جهود الناس ، أكثرها ثراء وأشدها اثارة وأعمقها تديُّناً ، انه يبدل أحلامنا آمالاً ويحملها الى اللامتناهي ...]

ان قول هذا العالم المفكر بأن للعلم مثلاً أعلى ومذهباً أخلاقياً رفيعا ، وأنه وسّع لنا آفاق نظرتنا الى الحق والحرية والتدين ، ولكنه لم يكن في مجتمع حكماء فنتج عن ذلك استخدامه تارة للخير وتارة للشر ، ان هذا

القول كان قد أدركه بعض المفكرين من علماء المسلمين قبل قرون عديدة •

ومن هؤلاء العلماء : الغزالي (١٧) والفارابي (١٨) •

[(١٩) فالغزالي وهو قدوة الأساتذة الأولين، يرى أن يُقصرَ العلم في المسائل العويصة على صفوة المتعلمين الأطهار، درجات بعد درجات أو كما قال في كتابه [الجام العوام عن علم الكلام] : فقد خُلق الناس أشتاتاً متفاوتين كمعادن الذهب والفضة وسائر الجواهر ، فأنظر الى تفاوتها وتباعد ما بينها صورة ولوناً وخاصية ونَفاسه • فكذلك القلوب معادن لسائر جواهر المعارف ، فبعضها معدن النبوة والولاية ومعرفة الله تعالى ، وبعضها معدن للشهوات البهيمية والأخلاق الشيطانية •]

واذا كان الغزالي قدوة الأساتذة الأولين ، وهم المتصوفة وعلماء الكلام، فلعل الفارابي هو قدوة الأساتذة الآخرين ، وهم الفلاسفة وعلماء الطبيعة والرياضيات ، وهو كالغزالي في تحريمه العلم الرفيع على

---

(١٧) الغزالي ـ أبو حامد محمد الغزالي • ولد في طوس بخراسان • شخصية غنية ومفكر من عظام فلاسفة العرب والمسلمين • تعلم في نيسابور وأقام في بلاط نظام الملك السلجوقي وقام بالتدريس في نظاميه بغداد وانصرف أخيرا الى الحياة الصوفية • ومن مؤلفاته : احياء علوم ألدين ، وتهافت ألفلاسفة والمنقذ من الضلال وكتب أخرى ، وقد دافع عن تعاليم الاسلام بحرارة وايمان ، فلقبوه بحجة الاسلام وعالم العلماء ووارث الانبياء • توفي في طوس سنة ٥٠٥هـ ـ ١١١١ م

(١٨) ألفارابي ـ أبو النصر محمد الفارابي • ولد في فاراب من بلاد ماوراء النهر • من أعظم فلاسفة العرب وألمسلمين أقام ببغداد وفي بلاط سيف الدولة ، شرح كتب ارسطو المنطقية والطبيعية وألاخلاقية ، فلقبوه (بالمعلم الثاني) بعد أرسطو • له مؤلفات عديدة منها • احصاء ألعلوم واراء اهل المدينة الفاضلة • توفي في دمشق سنة ٣٣٩ هـ ـ ٩٠٥ م

(١٩) مجلة ـ الكاتب ـ المصرية عدد يناير ١٩٤٦ ص ٢٦٤ من مقال للاستاذ عباس محمود العقاد •

سفلة الناس .. وقد استوجب الفارابي على طالب العلم الرفيع أو الحكمة الخالصة دروساً عدّدها في رسالته [فيما ينبغي أن يُقدَّم قبل تعلم الفلسفة] وهي معرفة الخالق تعالى وأنه واحد غير متحرك ، وأنه العلة الفاعلة لجميع الأشياء ، وأنه المرتِّب لهذا العالم بجوده وعدله وأما الأعمال التي يعملها الفيلسوف فهي التشبّه بالخالق بمقدار طاقة الأنسان]

ونحن لو تتبعنا ماكان يفعله العلماء الأعلام من العرب والمسلمين في اختيار تلاميذهم وخلفائهم ، لوجدنا أنهم كانوا دائما يختارون مَن صفا جوهره وطابت نفسه وتغلغلت الروح العلمية في دمه ولحمه ، فعاف الدنيا ، وترك التفاهات ، وأقبل على العلم فأستمتع بلذة الفكر والمعرفة وحمل رسالة أستاذه وأدى الأمانة التي حمله اياها . وبفضل هؤلاء الطيبين من رجال الفكر والعلم دامت الحضارة العربية الاسلامية وخدمت الأنسانية على مدى العصور .

وللأمام الغزالي رسالة صغيرة عنوانها [20] (أيها الولد) ترجمتها منظمة (اليونيسكو) في هيئة الأمم المتحدة الى الأنكليزية والفرنسية ، ينصح فيها الناشئين أن لايطلبوا العلم لنيل أغراض الدنيا والمباهاة على الأقران ، بل ان يقصدوا احياء الشريعة وتهذيب الأخلاق ، ويذكرهم : بأن العلم بلا عمل جنون والعمل بلا علم لايكون .

— ٥ —

وهناك ظاهرة أخرى لحظها كثير من المفكرين في الماضي والحاضر،وهي ان المعرفة صَنعة الفقير ، وأن العلماء أكثرهم من الفقراء ، وأن العبقرية

---

(٢٠) الموسوعة العربية الميسرة ص ١٢٥٤

تنبت في الكوخ وتموت في القصر في الغالب .

وتعليل ذلك كما يرى بعضهم : أن الحاجة تنشط الفكر ، والفكر الذي يعمل هو الفكر الذي ينمو وينتج ويتثقف ويستفيد ويفيد . والفقر يزرع في أعماق النفس شيئاً سرياً جميلاً يولد الشعور بالقوة والعطف والرقة لذلك فان معظم العباقرة في كل علم وفن هم من الفقراء ، ولدينا أمثلة كثيرة جداً عن هؤلاء في الماضي والحاضر ، وفي كل الشعوب . والعبقرية في نظر المخترع [٢١] (أديسون Edison هي : عشرة في المائة موهبة وتسعون في المائة عَرَق وجهد .

ومن حسن حظ رجل العلم والفكر أنه كلما ازداد ما يحصل عليه من علم وفكر أو اكتشاف أو اختراع ازدادت لذته في الحياة ودفعته هذه اللذة الى أن يعمل ويعمل ، ولايفكر في شيء من مال أو جاه أو جزاء، وكل هذا لاقيمة له في نظره .

وموهبة العقل المفكر هي من عند الله الخالق العظيم ، وعلى المفكر العالم رسالة يجب أن يؤديها بأمانة وصدق واخلاص . ومثل هذا فعل الأنبياء والرسل ، والعلماء ورثة الأنبياء .

ففي سورة (الشعراء) ذكر" لخمسة أنبياء دعوا أقوامهم الى الخير وسلوك الطريق المستقيم ليهتدوا ويعيشوا بخير وسعادة ، ولم يطلبوا منهم جزاء أو أجراً على الرغم مما نالوه وقاسوه من ظلم أقوامهم .

فهذا نوح عليه السلام يدعو قومه ويقول لهم :

---

(٢١) توماس أديسون ـ ١٩٣١ م : فيزيائي أمريكي مخترع الالات الكهربائية ومنها المصباح الكهربائي وهو أول من حقق عملية آلة (الحاكي) الفونوغراف ، وله اختراعات كثيرة جدا .

● وما أسألكم عليه من أَجْرٍ انْ أَجْرِيَ الاّ على رب العالمين فاتقوا الله وأطيعوني •

وهذا هود عليه السلام يدعو قومه ويقول لهم :

● فأتقوا الله وأطيعوني وما أسألكم عليه من أَجْر انْ أجري الاّ على رب العالمين • وبمثل هذه العبارة نفسها نطق بها الأنبياء : صالح ولوط وشعيب • وبمثل هذه العبارة يجب أن يقول كل عالم ذي رسالة ، لأنه من ورثة الأنبياء وهو يعيش وينتج ويخترع ويكتشف من أجل أخيه الأنسان •

● وهو الذي جعلكم خلائفَ في الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعضٍ درجاتٍ ليبلُوكم في ما آتاكم ، ان ربك سريعُ العقاب وانه لَغفور رحيم •

● نرفعُ درجات مَن نشاء وفوق كل ذي علم عليم •

● يرفع اللهُ الذين آمنوا منكم والذين أوتوا ألعلمَ درجات والله بما تعملون خبير •

ويرى بعض المفكرين أن الألهام يأتي من الأعلى ، والمال يأتي من الأسفل وكثيراً ما يحدث عندما يهبط المال على صاحب ألألهام أن يفارقه الله ليحل الشيطان معه • فالذهب يستخرج من جوف الأرض أما موهبة الفكر فلا يدري أحد مأتاها ، ولا نستطيع أن نحفر الأرض لأستخراجها لأنها شيء علوي

فسبحان من علّم الأنسان مالم يعلم !!

الأنسانُ والعملُ

جاءت كلمة (العمل) وما يُشْتَقّ منها في ٣٥٩ آية • بينهـا آيات كثيرة جداً تعد العاملين بالثواب الجزيل وبجنات النعيم ، وتذكر الناس بأن الله عليم بكل مايعملون في السر والجهر •

وفي ٧٣ آية ورد الأيمان مقرونا بالعمل الصالح • ودعوة القـرآن الكريم تؤكد دائماً على الأيمان والعلم والأيمان والعمل ، وتلك هـي الهداية الى الخير والفلاح وبدون الأيمان والعلم والعمل لاتقوم حضارة ولايدوم عمران •

◉ ومَن يعمل من الصالحات من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولايُظْلَمون نَقيراً [1] •

◉ وعدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لَيستخْلِفَنّهم في الأرض كما أستخلفَ الذين من قبلهم •

◉ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البريّة •

◉ الذين آمنوا وعملوا الصالحات طُوبى لهم وحُسْنُ مآب • [2]

◉ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جناتُ النعيمِ خالدين فيها وَعْدَ اللهِ حقاً وهو العزيز الحكيم •

---

(١) النقير ــ هو الحفرة في ظهر نواة التمر وغيره ، يضرب بها المثل لقلة الشيء

(٢) طوبى لهم ــ اي الخير والسعادة لهم • المآب ــ المرجع •

◉ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرةٌ ورزقٌ كريم •

◉ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أَجْرٌ غير مَمْنُون [٣] •

ومثل هذه الآيات كلها علامات مرسومة على مفترق طرق الحياة ، توجه الناس الى خير العمل ، فمن أهتدى فقد ربح ومن ضل فقد خسر •

◉ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يرهُ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يرهُ

والأيمان كما جاء في الحديث عن أبي هريرة ، قول النبي صلى الله عليه وسلم [٤] [الأيمان بِضْعٌ وسبعون أو بِضْعٌ وستون شعبة، فأفضلها قول : لا اله الا الله ، وأدناها إماطه الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الأيمان] وقد اهتم بعض علماء المسلمين في شرح معنى الأيمان في هذا الحديث وتوسعوا فيه كثيراً ومما قالوه :

[[٥] ان شُعَب الأيمان وان كانت متعددة ، الا ان حاصلها يرجع الى أصل واحد ، وهو تكميل النفس على وجه ، به يُصلح الأنسان معاشه ويحسن معاده ، وذلك بأن يعتقد الحق ويستقيم في العمل • واليه أشار عليه السلام حيث قال لِسُفيان الثقفي حين سأله قولاً جامعاً عن الأيمان ، قل : آمنت بالله ثم[٦] إستقم •

[والأعتقاد في رأيهم يتشعب الى ست عشرة شعبة : أولها طلب

---

(٣) غير ممنون ـ غير مقطوع •

(٤) رياض الصالحين ص ٦٥ والبضع ـ هو العدد بين الثلاثة والتسعة

(٥) جواهر البخاري ص ١٤

(٦) جاء في معجم لسان العرب في مادة (قوم) ـ بفتح الواو ـ رأي المفسرين في حديث : قل آمنت بالله وستقم آنهم فسروه على وجهين : قيل الاستقامة على الطاعة وقيل هو ترك الشرك •

العلم ••• والعمل في رأيهم ينقسم ثلاثة أقسام • أحدها مايتعلق بالمـــرء نفسه ، وحاصله تزكيه النفس عن الرذائل وتحلية النفس بالفضائل ، وهذا مايتعلق بالباطن وما يتعلق بالظاهر : فهو قيامه بالعبادات •

وثانيها : ما يتعلق بخواص الأنسان ، وأهل بيته ، كالعفة وبر الوالدين وصلة الرحم ورعاية الأسرة ••••

وثالثها ــ العمل في سبيل اصلاح العباد وخدمتهم ، ومن هذه الأعمـال : اماطة الأذى عن الطريق ••••]

وقد عددوا فروع كل قسم وشعبة بكل دقة وعناية لانجد مجالاً لذكرها

[(٧) والحياء في الشرع : خُلُقٌ يبعث على اجتناب القبيح ويمنع من التقصير في حق ذي الحق ، وانما خصه الرسول بالذكر لأنه كالداعـي الى باقي الشُعب ، ولأنه يبعث على الخوف من فضيحة الدنيا والآخـرة فيأتمرُ وينزَجرُ]

ان توسيع شعب الأيمان بهذه ألكثرة هو اعطاء الأنسان مجالاً واسعاً ليقوم بأعماله ويرى دربه ويُحسن الأختيار وتتوضح له الرؤية ولا تثقلـه القيود وتحيطه السدود ، والدنيا تتطور والأسلام دين رحب الجوانـــب فيه المجال الواسع للحركة والعمل والأجتهاد • حبذا لو انتبهنا الى كـــل هذا ، وعقلُ الأنسان العصري يأتي في كل يوم بفكرة جديدة وعمـــل جديـــد •

وكثيراً ماتحدث في دنيانا هذه أحداث لبعض الناس ، نتيجة أعمالهم،

---

(٧) جواهر البخاري ص ١٦

سواء أكانت خيراً أم شراً فيجنون ما زرعوه ، وفي هذا عبرة وموعظة ، ولكننا غافلون شاردون لانفكر ولانعي مايدور حولنا .

ونحن كثيراً مانغفل عن فضائل العمل ، وما يحدثه في النفس من لذة ، ومايكسبه الأنسان بفضله من قوة وشخصية وقيمة انسانية واجتماعية ، لأننا مهملون لأنفسنا ولا نحب أن نسأل : من نحن ؟ ما قيمتنا في هذه الحياة ولماذا جئنا الى هذه الدنيا ؟ وما الحكمة من وجودنا ؟ وما عاقبة أعمالنا وما مصيرنا ؟ وهكذا فقدنا عمق الفكر وقد ألهتنا الدنيا عن كل هذا .

ومن أحاديث الرسول (ص) التي تحث على العمل قوله :

ـ ما أكل أحد طعاماً قطّ خير من أن يأكل من عمل يده(٨) .

ـ وقوله : لأَنْ يأخذ أحدكم حبله ثم يغدو فيحتطب فيبيع فيأكل ويتصدق خير له من أن يسأل الناس(٩) .

ـ وقوله : ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو انسان أو بهيمة إلاّ كان له به صدقة(١٠) .

ـ وقوله ـ تعلموا ما شئتم أن تعملوا ، فلن ينفعكم الله بالعلم حتى تعملوا ، فان العلماء همتهم الرعاية والسفهاء همتهم الرواية(١١) .

ويروي أن الرسول رأى فُرْجَة في لَبِنِ قبر ابنه ابراهيم فأمر أن تُسَدّ ، وقال : أما انها لاتضر ولا تنفع ولكن العبد اذا عمل عملاً أحب اللهُ أن يتقنه(١٢) .

(٨ ، ٩ ، ١٠) كتاب جواهر البخاري

(١١ ، ١٢) كتاب روض الاخيار المنتخب من الابرار ص ١٦١ .

واللبن جمع لبنه وهي ما يصنع من الطين للبناء

ومن أقوال الأمام علي عليه السلام[13] :

- من قَصّر بالعمل أُبتلي بالهموم •

- وقوله : الداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر •

قالها لمن يدعو الله بشيء ولا يعمل •

- وقوله : مَن أبطأ به عمله لم يُسرع به نسبه •

وقوله - أفضل الأعمال ما أكرهتَ نفسك عليه •

وقوله - الناظر بالقلب العامل بالبصر ، يكون مبتدأ عمله أن يعلم : أعمله عليه أم له ؟ فان كان له مضى فيه ، وان كان عليه وقف عنه • فأن العامل بغير علم كسائر في غير طريق ، فلا يزيده بُعده عن الطريق الا بُعداً من حاجته • والعامل بالعلم كسائر على الطريق الواضح ، فلينظرْ ناظر أسائر أم راجع ؟ •

وروي عن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله [14] اني لأرى الرجل يعجبني ، فأقول : هل له حرفة ؟ فان قالوا : لا ، سقط من عيني •

ولعقلاء الناس والفلاسفة والمفكرين أقوال وآراء وتجارب في قيمة العمل وما يحدثه في الأنسان ، نجدها في بطون الكتب ، ومنها :

- ان العمل يقتل أكبر أعداء الأنسان وهي : الملل والشر والفقر •

- العمل هو المرآة التي يرى فيها الأنسان صورة صادقة لميوله واتجاهاته وشخصيته •

- الرجال العاملون يجنون ثماراً جديدة دائماً •

- ومما يروي عن أفلاطون قوله[15] : أطلب في حياتك العلم

---

(١٣) ماذكرناه من اقوال الامام علي تجده في ج ٣ من نهج البلاغة

(١٤ ، ١٥) كتاب روض الاخيار ص ٥١

والمال والعمل الصالح ، فأن الخاصة تفضّلك بما تحسن من العلم ، والعامة بما تملك من ألمال ، والجميع بما تعمل من العمل الصالح •

— ويقول أحد الحكماء : ازرع عملاً تحصد عادة ، وازرع عـــادة تحصد سُمْعَة ، وأزرع سمعة تحصد نصيبك من الدنيا • والنصيب يتوقف على العمل المزروع •

— ومن الأقوال الشائعة عند المفكرين والفنانين •

اذا عملت بيدك فأنت عامل •

واذا عملت بيدك وعقلك فأنت صانع

واذا عملت بيدك وعقلك وقلبك فأنت فنان •

والفنانون طبقة من رجال الألهام الذين يبدعون ويخترعون ويعطون أعمالهم عقولَهم وقلوبهم ، لذلك تدوم أعمالهم وتخلد • وهذا مانلحظه في كل فن من الفنون •

— (١٦) ويذكرون أن على حائط قاعة الأستقبال بأحد المعاهد الشهيرة للأمراض العصبية ، وُضعت هذه (اللافتة) ، وهي ليست موجهة للمرضى بل لأقاربهم ألأصحاء تقول :

اذا كنت فقيراً فاعملْ ، واذا كنت غنياً فأعملْ •

اذا كنت سعيداً فواصل العمل ، واذا خيّم الحزن عليك فأعمل •

اذا أحسست بالفرحة فأعمل واذا شعرت بخيبة الأمل فأعمل •

واذا تحطمت أحلامك ، واذا تزعزع ايمانك وفشل فعلك فأعمل •

اعمل وكأن حياتك في خطر •

ومهما كانت آلامك فأعملْ ، لان العمل هو أعظم علاج مادي يمكن أن تحصل عليه لشفاء آلامك بدنية كانت أم عقلية •

---

(١٦) مجلة اخبار اليوم القاهرية العدد ١٥٠٤ أيلول ١٩٧٣

وفي القرآن الكريم أمر" بالعمل :

◉ وقل اعملوا فسيرى اللهُ عملكم ورسولهُ والمؤمنون ، وستُردّون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون •

ومع هذا التكرار والأمر بالعمل ، فان الله رفيق بعباده لايكلفهم فوق طاقتهم •

◉ لايكلّف ألله نفساً الأ وُسْعَها [١٧] لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت•

وقد كتب الزعيم الهندي (جواهر لال نهرو) رسائل الى ابنته (أنديرا) وتعتبر هذه الرسائل من روائع الفكر والأدب الهندي المعاصر يقول في احداها :

[[١٨] ان الفكر كي يبرر نفسه يجب ان يؤدي الى العمل والفعل • والفعل هو الغاية من الفكر • وكل فكر لايتطلع الى فعل هو اجهاض وخيانة • فاذا كنا خدام الفكر فينبغي أيضا أن نكون خدام الفعل •• والناس يتجنبون الفعل غالباً لخوفهم من النتائج ، لأن الفعل معناه المخاطر والتعرض للأخطار ، ولكن الخطر يبدو مفزعاً من بعيد ، لكنه ليس من السوء كما تتصور لو أنك أقتربت منه ،بل لعله في أحيان كثيرة أن يكون رفيقاً لطيفا يزيد من نكهة الحياة]

– ٢ –

ونحن كثيراً ماتتحدث ونثرثر بأقوال وشعارات ، وندعي أموراً كثيرة ، ولكننا نقعد عن العمل والفعل في أكثر ما نقول وما نتحدث •

والقرآن يخاطب المؤمنين :

---

(١٧) الوسع – ماتسعه قدرة الانسان من غير حرج ولاعسر •

(١٨) مجلة الثقافة القاهرية العدد ٧٨ كانون الثاني ١٩٦٥ من مقال للدكتور عبدالرحمن بدوي عنوانه – رحلة الى الهند –

◉ ياأيها الذين آمنوا لِمَ تقولون مالاتفعلون ؟ كَبُرَ مَقْتاً [١٩] عند الله أن تقولوا مالاتفعلون •

والعاملون الفاعلون هم الذين يستخلفهم الخالــــق العظيم في أرضـــه لأصلاحها وتعميرها •

◉ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لَيستخلفَنّهم فـــي الأرض كما استخلف الذين من قبلهم •

◉ ولقد كتبنا في الزَّبور [٢٠] من بعد الذكر أن الأرض يرثُها عبادي الصالحون ، ان في هذا لَبلاغاً لقوم عابدين •

هؤلاء العباد الصالحون هم رجال الألهام والأيمان والفكر والعمل وأليـد العاملة التـي تبني وتشيد وتطور ألحياة الى الخير والأحسن فالأحسن •

وليس العمل [٢١] الصالح ، كما يتصوره البعض في صوم وصـــــلاة وحج وزكـــاة فقط فهذه أمور واجبـه ولازمة ومحتمة ، وهي في صميم حياة الأنسان الروحية وأقدس واجباته ، ولكنها ليست كل الغايات مـــن وجود الأنسان وصلاحه والله غنّي عن العالمين •

---

(١٩) المقت ــ أشد أنواع البغض من اجل ذنب او معصيته

(٢٠) جاء في معجم لسان العرب من مادة ــ زبر ــ قول المفسرين فـي تفسير الاية : قال ابو هريره : ألزبور هوما أنزل على داؤد ،ومن بعد الذكر اي في التوراه • وقال سعيد بن جبير : الزبور هو ألتوراة والانجيل والقران والذكر هو ألذي في ألسماء • وجاءت كلمة (الذكر) في المعجم نفسه أنه قراءة القران او التسبيح أو الدعاء أو الشكر والطاعة • وقد تكرر الذكر في الحديث ويراد به تمجيد اللـــــه وتقديسه وتسبيحه والثناء عليه بجميع محامده •

(٢١) جاء في كتاب التفسير الواضح ج ١٧ ص ٣٧ أراء بعض المفسرين في (ان الارض يرثها عبادي الصالحون) والمؤلف يناقش بعض هذه الآراء •

فكما أن الأيمان واسع متشعب يشمل كل مايحيط الأنسان من عبادة وعلم وعمل لكي يؤدي رسالته كخليفة الله في أرضه (وقد تعمدت ذكر مافسره العلماء وتوسعوا في شرح الأيمان ليكون واضحاً وحُجّةً على الذي يريد حصر العقول في نطاق ضيق محدود) كذلك العمل الصالح يشمل كل ما يقوم به الأنسان من عمل الخير لنفسه ولأخيه الأنسان ، وكل ما يخترعه ويكتشفه لأظهار عظمة الخالق وما في الكون من عجائب وخوارق صنعها الخالق العظيم ، وبذلك تتفتح عين الأنسان فيتطلع الى السماء ويقول : سبحان الخالق العظيم ! وينظر الى ماتُنبته الأرض وما تحويه من مخلوقات فيقول : ما أعظم الخالق وما أبدع مخلوقاته •

أن العالم المؤمن الذي يقضي الليالي والأيام والشهور والسنين لأكتشاف دواء ينفع الناس • والذي اكتشف مادة (التخدير) التي تخفف آلام ألأنسان ، ودواء السل والجدري والملاريا وغيرها •
والذي ذهب لأكتشاف القطب وما فيه من عجائب وغرائب مما خلق الله • والذي غاص في أعماق البحار معرضاً حياته لكل خطر في سبيل دراسة طباع الحيوانات ومعرفة خواصها وصفاتها وطريقة عيشتها وهجرتها وظروفها التي تعيش فيها • والذي اخترع الطائرة أو الكهرباء أو المذياع أو المركبة الفضائية أو بني الجسور واكتشف المعادن ، وكلها عجائب الخالق العظيم •
والذي ذلل الصحراء وأحيا موات الأرض وأستنبتها وحولّها الى جنة خضراء • هؤلاء كلهم وغيرهم من عباد الله ، عملوا العمل الصالح الذي أراده الله من خليفته في الأرض ، فعلمهم مالم يعلموا وهيألهم الأسباب ليعملوا ويشيّدوا ويعمّروا ويطوّروا الدنيا الى الأحسن ، ولهم الدرجات العليا اذا كانوا مع أعمالهم مؤمنين •

﴿ ومَن يأتِه مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجاتُ العُلى ﴾ •

* * *

كل هذا فقدناه نحن المسلمين ، لأننا وقفنا عند حدودنا ، ولم نفهم القصد والموعظة والعبرة من الآيات القرآنية • وكنا كمن يقف أمام (لافتة) تقول : من هنا الطريق • فوقفنا عندها ولم نتحرك ، وكأننا اكتشفنا السر ووصلنا الهدف ، ونحن ما زلنا في أماكننا لم نتقدم خطوة واحدة • وهكذا تخلفنا عن الركب لعجزنا عن الفعل والعمل ، وشددنا على أيدينا فلم تعمل وعلى أرجلنا فلم تتحرك وعلى عقولنا فلم تفكر •.

ان هذا التخلف ورثناه منذ قرون عديدة ، وما زلنا غير مهتمين •فاذا كانت الصناعة من اسس الحضارة في كل عصر ، والصناعة فكر وعلم ، فان المسلمين من أكثر الناس تخلفاً فيها • وقد أدرك هذه الظاهرة العالم المفكر ابن خلدون ٨٠٨ هـ ـ ١٤٠٦ م • فهو يقول في فصل خاص في (مقدمته) : [(٢٢) فصل في أن المباني والمصانع في الملة الأسلامية قليلة بالنسبة الى قدرتها والى ماكان فيها من الدول] ويعلل هذه الظاهرة ، وبيننا وبينه أكثر من خمسة قرون •

ويقول أيضاً في فصل خاص(٢٣) [ان رسوخ الصنائع في الأمصار انما هو رسوخ الحضارة وطول أمدها] ويعلل ذلك ويضرب الأمثال بالدول التي عاصرها أو قرأ عنها •

---

(٢٢) المقدمة ص ٢٥١

(٢٣) المقدمة ص ٢٨٢

ثم يتحدث عن خراب الحضارة في فصل [٢٤] [ان الأمصار اذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع] •

وابن خلدون عندما يتحدث في مقدمته عن الفارق بين الأنسان والحيوان يرى رأياً لم يسبقه اليه أحد ، فهو يقول بعد أن يتحدث عن الحيوان وعظمة الخالق في خلقه[٢٥] [وجعل للأنسان عوضاً عن ذلك كله : الفكر واليد • فاليد مهيأة للصنائع بخدمة الفكر ، والصنائع تحصل له الآلات التي تنوب عن الجوارح المُعدّة في سائر الحيوان] •

ان ذِكر ابن خلدون (لليد) وجَعْلَها بجانب الفكر في قيمتها ، لم ينتبه اليه كثيرون ممن تحدثوا عن الأنسان ، حتى جاء العالم والفيلسوف الألماني (كانت Kant) ١٨٠٤ فقال[٢٦] [اليد هي عقل الأنسان الخارجي] •

وهكذا أراد ابن خلدون أن يقول : ان في الأنسان قوتين عظيمتين هما : الفكر واليد •

ولو رجعنا الى القرآن الكريم لوجدنا أن كلمة (يد) تكررت في (١٢٠) آية بأسلوب الحقيقة أو المجاز أو الأستعارة • وتأتي آيات تذكر الناس بما عملت اليد من خير ، وما يجب أن يعملوا بأيديهم • واليد هي الأداة الوحيدة في جسم الأنسان ، تبني وتعمر وتحقق مافي الفكر من

---

(٢٤) المقدمة ص ٢٨٣

(٢٥) المقدمة ص ٣١

(٢٦) كانت ــ ١٨٠٤ فيلسوف الماني له مؤلفات كثيرة منها : نقد العقل النظري ، ونقد العقل العملي ، ونقد الحكم العقلي • قال بالحرية وخلود النفس وبوجود الله •

موهبة وعلم ومعرفة •

● أَوَلَمْ يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون ؟

● وآية لهم الأرض المَيْتَةُ أحييناها وأخرجنا منها حبّاً فمنه يأكلـون ، وجعلنا فيها جنات مـن نخيل وأعناب وفجّرنا فيهـا مـن العيـون ، ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ؟

● يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء•

وقد صنع الله اليد صناعة عجيبة ، وضع فيها القابلية للحركة والتغيير والتكيف ، بحيث لايستطيع الذكاء الأنساني أن يصنع جزءاً يسيراً يسيراً مثل حركتها ، وبذلك تحقق كل مايريده الفكر من اليد أن تعمل •

ووضع فيها الخالق حاسة أللمس ، وجعل فيها (الأبهام) وفيـه من التجاعيد والتلافيف ماحيّر عقول البشر ، وصاروا يتخذونها علامـة التمييز بين انسان وانسان على كثرة عددهم واختلاف عناصرهم وأجناسهم•

وفي اليد خطوط وتجاعيد في باطنها ، اتخذها بعض المتنبئيـن مجالاً واسعاً لمعرفة الحظ والعمر والقلب ومصير الأنسان ، فهم يدرسون هـذه الخُطوط : طولهـا وعمقها واتصالهـا ببعضها ، ويتنبـؤون للشخص بما يلاحظون • ولله في خلقه شؤون !

وهنـاك بحـوث طبية حديثـة ، تقـول ان على الطبيب في المستقبل أن يفحص كفّ المريض ليعرف فيما اذا كان مصاباً بمرض القلب ، وربمـا لمعرفة أمراض أخرى ، وقد أجريت تجارب كثيرة حول هذا الموضوع •

فما أعجب هـذا المخلوق !

وما أعظم هـذا الصانع !

الأنسانُ والدنيا

عالــم الدنيا عجيب غريب •

مرت عليه العصور والعصور •

وظلمُ الأنسان لأخيه الأنسان •

وحــــروب ودمار •

وصراع بين المذاهب والآراء والأديان •

وأستغلال القوي للضعيف والغني للفقير •

دولٌ قامت ثم دالت وحضارات ظهرت ثم غارت •

كل هذا وغيره ترك رواسب في دمائنا وسلوكنا وتكويننا •

يقف الأنسان حائراً في هذا ألُلغْز ، لايدري مايقــول ولا يعــرف ســـرّ وجوده • هذه هي الدنيا ، علينا أن نرتضيها على علاّتها وأختلاف ألوانها وطعومها ، وأن نرضى بحكم القدر في وجودنا فيها •

والخالق العظيم لطيف بعبـاده ، أعطانا عقــولاً ومواهب وغرائــز ، وصوّرنا أحسن صورة وكوّننا أقوى تكوين ، وبعث مــن عبـاده مبشرين ومنذرين ومفكرين لئلا تكون عليه الحجّة يــوم الديــن ، فمــن أحســن فلنفسه ومن أساء فعليها •

ولكن الأنسان مخلوق عجيب ، ينظر الى الأرض ولا يتطلع الـــى السماء • تستهويه المادة زاعماً أن فيها حاجته وسعادته ، ويهمل الروح التي بها يحيا ويعيش ويسعد • والروح تصعد الى خالقها في السماء والمادة تفنى

في تراب الأرض ، لذلك فهو هدف للشر والضُرّ ، وبذلك يظلم نفسه ويوقع عليها أقسى عقاب • وهذا هو الأنسان ، اذا أصابه خير سها وغفل عن ذكر الله ، واذا أصابه ضُرّ شكا وبكى وأستغاث ودعا الله •

◉ [١]واذا أَنْعَمْنا على الأنسان أعرضَ ونأى بجانبه ، واذا مسّه الشرُ فذو دُعاء عريض •

◉ [٢]فاذا مسّ الأنسانَ ضُرٌ دعانا ثم اذا خَوّلناه نعمةً منا قال : انما أوتيته على علم ، بل هي فِتنةٌ ، ولكن أكثر الناس لايعلمون •

هذه هي نظرة الماديين الذين يتأملون في علمهم وفيما ينتجونه من دراسة أو اختراع وأبتكار ، وينسون الموجد لهذه العلوم ولهم أنفسهم ، وغفلتهم هذه أضاعت منهم حلاوة البحث ولذة الفكر وسعة الأفق ، لأن المادة محدودة في نطاق ضيق ، وهذه فتنة ـ كما تقول الآية ـ أي تجربة وأختبار لمن يعلم حقيقة العلم ، ولكن أكثر الناس لايعلمون •

◉ [٣]ومن الناس مَن يعبد الله على حَرْفٍ ، فانْ أصابه خير اطمأن به ، وان أصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسْران المبين •

ألسنا نحن مثل هذا الأنسان الذي وصفه القرآن الكريم ؟ اذا

---

(١) أعرض ـ أضرب وصد • نأى بجانبه أي انحرف عنه وذهب بنفسه وأبتعد • دعاء عريض ـ دعاء كثير •

(٢) الضر ـ الشدة والضيق أو سوء الحال • خولناه ـ أعطيناه وملكناه• الفتنة ـ الاختبار والابتلاء •

(٣) يعبد الله على حرف ـ أي على شك وضعف في العبادة أو يعبده الله في السراء دون الضراء ، أو اذا لم ير مايحب مال الى غيره•

أصابتنا نعمة اطمأنت نفوسنا ونسينا كل شيء وقلنا : هذه النعمة من جهودنا وعلمنا ومعرفتنا ، واذ حلت بنا شدّة أو مصيبة أستغثنا ودعونا الله ليكشف عنا ما أصابنا • وأحياناً نعبد الله مادمنا بخير ونعيم حرصاً على دوام مانحن فيه ، فاذا أصابنا مايكدر حياتنا ضعفت عقيدتنا ، فكأننا نعبد الله في السّراء لا في الضرّاء •

هذا هو الأنسان ، الا الذي عقل آيات الله فاهتدى وسار في الطريق المستقيم فشكر الله على الخير والنعمة وصبر على الضُرّ ، لأنه لايعرف أسرار القدر وحكمة الخالق العظيم ، والدنيا دار للضيوف ونحن فيها غادون ورائحون •

والخالق العظيم يريد من الأنسان أن يعيش حياته الدنيا سعيداً بالأيمان والعلم والعمل والتعمير والبناء ، لأنه خليفته في أرضه وبذلك يصل شاطيء السلامة • أعطاه كل مايريد ونبهه الى كل خير ليصارع أمواج الحياة فيصل العالم الثاني سليما وبيده اليمنى كتابه وفيه أعماله ، وهي حصاد مازرعه في دنياه ، أفهمه أن طريق الأخرة هو الدنيا ، فان أحسن في دنياه نال الجزاء والسعادة الأبدية وان أساء غرق في بحر الحياة فخسر دنياه وأخراه وذهب غير مأسوف عليه وهكذا جاءت [الدنيا] في القرآن الكريم في ١١٥ آية ، وفي معظمها وصف لتفاهتها وأنها لهو ولعب وتفاخر ان لم يكن معها ايمان وفكر وعلم وعمل ، ومنها ذكر لقصر أجلها لأولئك الذين يعتقدون بخلودهم فيها ، وفيها تهديد ووعيد لمن حاد عن سبيل الخير وتهالك على المادة وظلم الناس ، وفيها أمثلة رائعة في تصويرها لكل مفكر ،والدنيا مزرعة للعالم الثاني ، وكل انسان يحصد مازرع •

● ومآأُوتيتم من شيء فمتاعُ الحياة الدنيا وزينتُها ، وما عند الله خير وأبقى ، أفلا تعقلون ؟

● (٥) واعلموا أنما الحياة الدنيا لَعِبٌ ولهوٌ وزينة وتفاخر بينكم وتكاثرٌ في الأموال والأولاد كمَثَل غيثٍ أعجب الكُفّارَ نباتُه ، ثم يهيج فتراه مصفرّاً ثم يكون حُطاماً •

والكُفّار في هذه الآية جمع (كافر) وهو الزارع ، وكفر الشيءَ أي ستره وغطاه ، وسمي الزارع كافراً لأنه يستر البذر في الأرض ، كما يقول بعض المفسرين •

والأسلام دائما يدعو الى الأعتدال والتوسط في الحالات ، وعدم الأفراط أو التفريط في الشيء والاعتدال ميزة الأنسان المفكر الذي يرى الأمور واضحة من جوانبها العديدة ، فيعطيها حقها من العناية والأهتمام • ولذلك جاءت الآية واضحة في هذه الدعوة :

● وأبتغِ فيما آتاك اللهُ الدارَ الآخرة ولاتنسَ نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولاتبغِ الفسادَ في الأرض ان الله لايحب المفسدين•
لكن المفرطين في حب الدنيا المتهالكين عليها تشغلهم الدنيا وتعمي بصائرهم عن الرؤية الواضحة والتفكير في أنفسهم والأهتمام بذاتهم وتكوينهم وقد جاءت هذه الآية في سورة (القَصص) في الحديث عن (قارون) ذاك

---

(٥) الغيث ـ المطر • يهيج الزرع ـ ييبس • الحطام ـ ماتكسر من الشيء

الذي ملأ خزائنه بالمال فتكبرّ وتجبرّ وبغي في الأرض ، وأدعى بان ما جمعه هو بعلمه ومعرفته • وسأحدثك عن قارون بعد قليل لما في قصته من موعظة وعبرة لكل من يتأمل الحياة ويتدبر ويتفكر •

– ٢ –

والأنسان الذي لايفكر ولايعرف قيمة العلم والعمل ولايفرق بين العمل الصالح والعمل الضار ، ولايتأمل الحياة ويتدبرها ، بل كل همه المتعة والمسرّة وجمع المال من اي وجه أتى ، هذا الأنسان – ومعظم الناس مثله – يحل فيه الفراغ الروحي والفكري ، فينسى السماء ويغفل عنها ، ويتجه الى الأرض وما فيها من مادة وزخرف ولهو ولعب ، ويتهالك على جمع المال بالحلال وبالحرام وبطرق مشروعة وغير مشروعة ولوقاده ذلك الى الأجرام وسفك الدماء وأستغلال أخيه الأنسان وموت الرحمة والعطف في قلبه وفقدان انسانيته وضميره •

◉ كلاّ بل لاتكرمون اليتيم ولا تحاضّون [٦] على طعام المسكين وتأكلون التراثَ أكلاً لـمّاً وتحبون المال حباً جـمّاً •

ومن أحاديث الرسول الكريم [٧]

– عن أنس بن مالك قال رسول الله (ص) : يكبر ابن آدم ويكبر معه اثنان : حب المال وطول العمر •

– وعن ابن عباس يقول : سمعت رسول الله (ص) يقول : لوكان لابن آدم واديان من مال لأبتغي ثالثاً ولايملأ جوف ابن آدم الا التراب ، ويتوب الله على من تاب •

---

(٦) ولا تحاضون – لاتحثون ولا تندفعون • التراث – الميراث • أكلا لما – أكلا شديدا • حبا جما – حبا كثيرا •

(٧) الاحاديث تجدها في كتاب جواهر البخاري ورياض الصالحين •

ــ وعن ابن عباس وأنس بن مالك : أن رسول الله (ص) قال : لو أن لأبن آدم وادياً من ذهب لأحب أن يكون له واديان ، ولا يملأفاه الاالتراب ويتوب الله على من تاب •

ــ وقوله : ان لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال •

ومن أقوال الأمام علي عليه السلام :(٨)

ــ المال مادة الشهوات •

ــ مَن كَرُمتْ عليه نفْسه هانتْ عليه شَهواته •

ــ الدنيا خُلقت لغيرها ولم تُخلق لها ، أي خلقت سبيلاً للآخرة •

وهؤلاء الذين جمعوا الأموال وكدسوا ثرواتهم من أفراد وأُسر وأمم وشعوب ، مالوا الى الترف والبطر ، ومن هنا نمت بذرة الفساد والدمار •

والترف والبطر من علامات زوال النعمة ، والله رقيب حسيب • والآيات صريحة وكثيرة في تحذير الأنسان والأمم من البطر والترف ، ومنها :

◉ ولو بسط الله الرزق لعباده لَبغوا في الأرض ، ولكن ينزّل بقدر ما يشاء انه بعباده خبير بصير •

◉ وكم أهلكنا من قرية (٩) بطرتْ معيشتُها ، فتلك مساكنهم لم تُسكَن من بعدهم الا قليلاً ، وكنا نحن الوارثين •

---

(٨) أقوال الامام علي تجدها في كتاب نهج البلاغة •

(٩) القرية ــ في قول المفسرين ، التي وردت دائما في القرآن تعني المكان الذي يجمع الناس أو المدينة أو الحضر أو المساكن والضياع •

◉ واذا أردنا أن نُهلكَ قريةَ أمرنا مُترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمرناها تدميراً •

والمترفون البَطِرون هم دائماً أهم سبب من أسباب ثورات الشعوب لأنهم لايحبون التغيير والتقدم حرصاً على حقوقهم وأمتيازاتهم ، وهم بسلوكهم يثيرون عليهم مَن حولهم من المحرومين الذين هم بشر مثلهم ، وفيهم النابغة والعبقري والمفكر الذي لايرضى على نفسه الظلم ولا أن يظلم الأنسان أخاه الأنسان •

◉ وكذلك ماأرسلنا من قبلك في قرية مِن نذير ، الا قال مُترفوها إنّا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون •

◉ حتى اذا أخذنا مُترَفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون[10] ، لاتَجأَروا اليومَ ، انكم منا لاتُنْصَرون •

وتأتي في القرآن الكريم قصة (قارون) وهو من قوم موسى • ولعل في ذكر قصته كما وردت في سورة (القَصص) عبرة لكل معتبر • وما أكثر مايحدث للناس المترفين الذين تغريهم المادة وتبعدهم عن الصواب فينسون الله ويتكبرون ويتجبرون كما حدث لقارون ، ولكن أكثر الناس غافلون •

فقارون مضرب المثل في الغنى والثراء والغرور ، بغى وتكبر فخسفت به وبداره الأرض • ونسبت بعض الأساطير [11] غناه الى علمه بالكيمياء وأعتبروه مؤسسها ، وقد كان وزيراً لفرعون ، وجاء ذكره في القرآن في ثلاث سور : القصص والعنكبوت وغافر • وتأتي قصة قارون :

(10) يجأرون ــ يرفعون أصواتهم ويتضرعون •
(11) الموسوعة العربية الميسرة ص١٣٦٠

◉ ان قارونَ كان من قوم موسى ، فبغى[١٢] عليهم ، وآتيناه من الكنوز ما انّ مفاتِحَهُ [١٣]لَتَنوء بالعُصبَةِ أُولي القوة ، اذ قال له قومه : لاتفرح ان الله لايحب الفَرِحين •

◉ وأبتغِ[١٤] فيما آتاك اللهُ الدارَ الآخرة ولاتنسَ نصيبَكَ من الدنيا وأحسنْ كما أحسن الله اليك ولاتبغِ الفسادَ في الأرض ان الله لايحب المفسدين •

◉ قال : انما أُوتيته على علم عندي ، أَوَلم يعلم أن الله قد أهلك من من قبله من القُرون [١٥] من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ، ولايُسأل عن ذنوبهم المجرمون [١٦] •

◉ فخرج على قومه في زينته • قال الذين يريدون الحياة الدنيا : ياليت لنا مثل ماأوتي قارون انه لذو حظ عظيم •

◉ وقال الذين أوتوا العلمَ وَيْلكم ، ثوابُ الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ، ولا يُلقّاها الا الصابرون •

◉ فخسفنا به وبداره الأرضَ فما كان له من فِئة ينصرونه من دون اللهِ وما كان من المنتصرين •

---

(١٢) بغى ـ عدل عن الحق

(١٣) مفاتحه لتنوء بالعصبة ـ أي ان مفاتح خزائنه يثقل حملها على الجماعة • تنوء ـ تنهض بجهد ومشقة • العصبة ـ الجماعة من الناس

(١٤) ابتغ ـ فعل أمر من ابتغى أي أطلب •

(١٥) القرون ـ جمع قرن وهو سيد القوم

(١٦) أي لايسأل المجرمون غيرهم عن عقوبة ذنوبهم لاعترافهم بها •

◉ وأصبح الذين تمنّوا مكانه بالأمس يقولون : وَيْكأن[17] – وَيْ كأن – اللهَ يبسطُ الرزقَ لمن يشاء من عباده ويَقْدِرُ[18] ، لولا أنْ مَنَّ الله علينا لخسف بنا ، وَيْكأنه لا يُفلح الكافرون •

◉ تلك الدارُ الآخرةُ نجعلها للذين لا يريدون عُلُوّاً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين]

وقصة قارون ليست حكاية انسان غني نال جاهاً وسلطاناً فطغى وبطر وتجبر وأدعى بأنه حصل على المال والجاه بعلمه وبصُنع يده وقدرته ، بل هي عبرة لكل انسان أو طائفة أو أمة تتجبّر وتظلم وتستبد وتنشر المفاسد اذا ملكت المال والسلطان وعاشت في ترف وبطر • وفيها توعية للأغنياء ورجال الحكم ، الذين أنعم الله عليهم ، ليستمتعوا وتدوم نعمته عليهم اذا ما سلكوا طريق الخير والرشاد وحسبوا حساب المصير كما يحسبون حساب دنياهم •

لكن الأنسان لا يهتدي ولا يعي ولا يعرف الطريق الا اذا تأمل وتدبر وفكر ، ونظر الى الأعلى وتعلق بالسماء ، فهانت عليه المادة وأستخف بها لأنها عَرض يزول ولا يدوم • والسلطان محنة وفتنة واختبار وابتلاء ، لا ينجو منه الا القليل القليل ، الذي اهتدى وحسب لكل شيء حسابه ، والدنيا دولاب يدور ، يوم لك ويوم عليك •

وعالمنا اليوم هو عالم قارون ، هذه الدول الكبرى جمعت المال

---

(١٧) ويكأن – أصلها وي كأن – وي بمعنى أتعجب وكأن للتشبيه • ويكأن الله يبسط الرزق أي أعجب للرزق الذي يبسطه الله •

(١٨) يقدر – يضيق أو يقسمه بقدر معين •

والسلطان بالعلم ، فبغت وتجبرت وقست على الشعوب الضعيفة ، وخرجت في قوتها وزينتها ناسية القوة العظمى التي خلقت الأنسان ، ووضعت في رأسه الفكر وهيأت له أسباب العلم وجعلت في أرضه ألكنوز والمعادن التي لايمكن حصرها ليعمل ويخترع ويبتكر ويعمر ويخدم نفسه وأخاه الأنسان •

لكن المادة اذا طغت عميت البصائر والقلوب وأنقطع الخير والبرّ وألأحسان • فما أَتْفَهَ هذا العالم الذي نعيش فيه !!

وقد أدرك بعض المفكرين خطورة المادة ، وهذا الفيلسوف والمفكر والكاتب (توماس كارلايل) يقول في كتابه (الأبطال) : [19] [ولن ترى حالاً أسوأ من أن يظل الأنسان وهو لايؤمن الا بالشيء الذي يملأ جيبه ويلتهمه باحدى حواسه ويهضمه • وهذا سقوط ليس دونه ، وأبيكم ، هبوط ولا مُنحدَر ، وانما نسمي العصور التي يهوى بها الأنسان لهذا الدرَك أمرضَ العصور وأخسّها وأحقها بالحزن والبكاء ، وفي مثلها تُشَلّ يمين الدهر ويجمد نبض الحياة ، وفي مثلها تغيض عيون الخير ، وتُطمَسُ معالم البِرّ ، وينقطع العمل الصادق الحر ، ويقوم بدله الحذق بالتقاليد والمحاكاة ، وهو عنوان رِقّ الأنفس وأسر الأذهان وعمى البصائر والقلوب]

- ٣ -

وكان الرسول(ص) يخشى على المسلمين من الترف وتهالكهم على المادة [20] روى عمرو بن عوف الانصاري : أن رسول اللّه (ص) بعث أبا عُبيدة بن الجراح رضي الله عنه الى البحرين يأتي بجزيتها ، فقدم بمال من البحرين ، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة ، فوافوا [21] صلاة الفجر مع

---

(١٩) الابطال ص٢٣٢

(٢٠) رياض الصالحين ٢٠٧

(٢١) وافو ــ أتوا ، فأجأوا والفعل وافي أي أتى أوفاجأ

رسول الله (ص)، فلما صلى رسول الله انصرف فتعرّضوا له،فتبسّم رسول الله (ص) حين رآهم ، ثم قال : أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيءمن البحرين ؟ فقالوا : أجْل يارسول الله ، فقال : ابشروا وأمّلوا مايسركم ، فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكني أخشى أن تُبْسَط الدنيا عليكم كما بُسطَتْ على من كان قبلكم ، فتَنافَسوها كما تَنافَسوها فتُهلِككم كما أهلكتهم] رواه البخاري ومسلم .

تنافسوها ـ أي تبالغون وتتزايدون وترغبون في المباراة بينكم فيها وتتنافسون

(٢٢) وعن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه قال: جلس رسول الله(ص) على المنبر وجلسنا حوله ، فقال ان مما أخاف عليكم بعدي ما يُفتَح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها .

(٢٣)وعن علي رضي الله عنه قال:رأيت رسول الله (ص) أخذ حريراً فجعله في يمينه ، وذهباً فجعله في شماله، ثم قال ان هذين حرام على ذكور أمتي.

(٢٤) وعن حذيفة رضي الله عنه قال : نهانا النبي (ص) أن نشرب في آنية الذهب والفضة ، وأن نأكل فيها ، وعن لبس الحرير والديباج ، وأن نجلس عليه .

وهناك علماء ومفكرون يتحدثون عن خطورة الترف والبطر في الحياة وأثرهما في الدين والدنيا وفي أخلاق المجتمع وأنهيار الحضارة والقضاء على سعادة الانسان . ولعل أول من فكر في هذا هو ابن خلدون، فهو يقول في (مقدمته) عن الترف وأثره في الدين والدنيا[٢٥][وذلك أن الترف والنعمة اذا حصلا لأهل العمران،دعاهم بطبعه الى مذاهب الحضارة والتخلّق بعوائدها والحضارة كما علمت، هي التفنن في الترف وأستجادة أحواله،والكلَف

---

(٢٢) المصدر السابق ص٢٠٧

(٢٣) ، (٢٤) المصدر السابق ص٣٢٨

(٢٥) المقدمة ص٢٦١

بالصنائع التي تُؤنّق من أصنافه وسائر فنونه ، من الصنائع المهيأة للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفرش أو الآنية ولسائر أحوال المنزل ••• واذا بلغ التأنق في هذه الأحوال المنزلية الغاية ، تبعه طاعة الشهوات ، فتتلّون النفس في تلك العوائد بألوان كثيرة لايستقيم حالها معها في دينها ودنياها •

أما دينها ، فلأستحكام صيغة العوائد التي يعسر نزعها ، وأما دنياها فلكثرةالحاجات والمؤونات التي تطالب بها العوائد ويعجز الكسب عن الوفاء بها]

أليس هذا الذي قاله ابن خلدون قبل مئات السنين نراه الآن ونلحظه في دنيانا التي نعيشها ، وكأن ابن خلدون بيننا ؟؟

وهذا العالم المفكر (جلبرت هايت Gilbert Highet يتحدث في كتابه (جبروت العقل) وحديثه من أروع ماكتبه مفكر في هذا القرن عن خطورة الترف والبطر ، لانه عاش هذه المجتمعات في أوربا وأمريكا ، ودرس الأنسان في ظروفه المختلفة ، وقدم لنا تجربته ، وليتنا نتأملها ونفكر فيها : فهو يقول :

[(٢٦)ولنفرض أن مستوى الحياة مضى يرتفع في جميع أرجاء الأرض وأن عدد السكان ازاد ازدياداً مطرداً ،وأن ساعات العمل قد قلت ، وساعات الراحة والفراغ قد زادت ، وأن مايُقلق الناس قد خف ، وان فرص ألمتعة قد كثرت كثرة عظيمة ، تُرى ماذا يفضّل ألناس يومئذ ؟؟

أيفضلون المعرفة على المسكرات ؟ أيأخذون الفن والموسيقى والكتب ويدعون الميسر وسباق الخيل ؟ ••• فانه مما يروّع النفس أن ترى ألوف الملايين

---

(٢٦) جبروت العقل ص٨٣

من ساعات العمل ، ومقادير لاتحصى من المواد تُبدّد وتُبذّر كل يوم في جميع العالم على المتعة السخيفة • وليس في لون واحد منها يزيد على مُتعة يوم فحسب ، ومعظمها لايؤتي حتى هذا ، وكلها قائمة على فكرة (المُتعة) وهي تعني حقيقة اشباع شهوة عارضة ، فكأننا نتصل الى القرود بصلة ، لأن كثيرين منا لايدركون أن المتعة هي غير السعادة •

فمن الممكن أن ينتهي الفكر البشري الى هلاكه تحت سيل آتٍ من السخف البشري • فالأمم والحضارات التي تكشف أنه أيسر عليها جداً أن تنصرف الى المتعة العابرة دون أن تُلقي بالاً الى شيء يأتي الى عالم ألعقول ، سرعان ماتجد عضلاتها العقلية قد ضعفت أو أسترخت ، وأنها لاتستطيع أن تفكر مطلقاً في بعض الموضوعات الصعبة ، وأنها تفضل ان تصنع بعض الأنتفاضات العاطفية المتفرقة محل النشاط الفكري ألمتصل وأذا هي تجد نفسها في آخر الأمر وقد أستسلمت للهمجية استسلاماً أبهج في حسها ،ولكنه أكمل من أستسلامها لغزوة من الهمج • ذلك بانها تصبح كالقبائل البدائية ، عاجزة عن القراءة والكتابة وعن تنظيم الخبرة في صورة منطقية ، وعن وضع الخطط للمستقبل أو تتذكر عِبَر الماضي وألأخذ به •••

وهناك فريق من أهل الرأي يؤمنون بأن السعي وراء المال واللذة العابرة قد بدأ يفتك بقوى الروح الأخرى ويفسد المجتمع ••••

وقد يكون من الممكن أن تضعف القوة الأدبية في ملايين الناس ،وذلك بجعل الحياة ميسّرة الأسباب فينسون أن يستعملوا عقولهم ••

أفيستطيع شعب حديث أن يقاوم اغراء عرض رائع ، وتوزيع أجهزة

التلفزيون بالمجان ، وتيسير القمـــــار بجعله منظماً شرعياً ، وترخيص المشروبات الروحية ، وحضور حفلات لعب الكرة على أنواعها ، والملاكمة والمصارعة ، وعرض الجميلات في ملابس السباحة ، وسباق الجياد والأفلام وكل ذلك بغير ثمن ، سبعة أيام في كل أسبوع ؟؟]

هذه صورة حية لما يحدث في الغرب الحضاري من تدهـور القيـم الحضارية من خلق وفكر وعلم ودراسة • وهانحن سائرون علـى هـذا الدرب ، مقلدون عميان لاندري الجهة التي نسير فيها والهدف الـذي نقصده •

وهذا عالم آخر من علماء (علم الأنسان) الأنثروبولوجي – وكنت قد حدثتك عن هذا العلم – هذا العالم هو [٢٧] (كلايد كلوكهـون Clyde Klue Khon يحدثنا في كتابه (الأنسان في المرآة) ، ولعل في حديثه مايقنعنا بعدم التورط في اتجاهنا نحو الغرب وبخاصة الولايـات المتحدةالأمريكية ، فهو يقول :

[[٢٨] ويقرر الأمريكيون علانية أن (المتعة والمسرّة) جزء هام مـن الحياة ، ويعترفون بالشوق والتهافت على كل شيء جديد ومثير • وعلى هذا الأساس فقد أوجدنا هوليوود – مدينة السنما ، وحياتنا الجامعيـة ، وحدائقنا العامة ونُصبنا التذكارية القومية وغاباتنا ، ويتقاضى البـارزون في صناعة الترفيه والتسليه رواتب أعلى من رواتب رجال الولايات المتحدة

---

(٢٧) كلايد كلوكهون – درس في أكسفورد ووضع رسالته في علم الانسان ثم أنتقل الى أمريكا وفي الحرب العالمية الثانية أصبح رئيسا للقسم السياسي التابع للجيش الامريكي في الشرق الاقصى ثم صـار أستاذا في جامعة (هارفرد) وله مؤلفات عديدة •

(٢٨) الانسان في المرآة ص٤٣٦ ، ٤٤٩

الأمريكية ونسائها كافة ••• ونحن مثلاً نصرف على مشاهدة السينما أكثر مما نصرفه على الكنائس ، وفي صالونات التجميل أكثر مما نصرفه في الخدمات الأجتماعية •••

فالتطور الأقتصادي الضخم الذي جاء في أعقاب نمو اقتصادي لم يسبق له مثيل ، وأنعدام الأهتمام بمشكلات المدنية الصناعية ، وانعدام الشخصية في النظام الأجتماعي في المدن ، وبوتقة الأنصهار ، وضعف الأيمان والدين كل هذه العوامل أسهمت في جعل أمريكا تشعر بأنها غير مستقرة ولا ثابتة تتقاذفها الأمواج في رحلة لاهدف لها • أن نسَق العائلة الأمريكية يجتاز الآن دور التشكل بشكل جديد في النظام ، ومثل هذه المرحلة لاتورث راحة نفسية لأفراد المجتمع]

— ٤ —

وقد نشرت مجلة (تايم Time الأمريكية ـ وهي من أوسع المجلات انتشاراً في العالم في عددها الصادر يوم ٢٣ آذار سنة ١٩٨١ حديثاً مفصلاً عن الجريمة العنيفة في الولايات المتحدة ، وقد وضعت على الغلاف صورة بشعة لرأس هشمته طلقات الرصاص فتلطخ بالدم وتشوه ، وكتبت عليه (الجريمة العنيفة في أمريكا) •

وبدأت المجلة بالحديث عما أصاب بعض محرريها والعاملين فيها من هذه الجرائم العنيفة في المقدمة (رسالة من الناشر) كأول حديث في المجلة ، يقول فيها الناشر : ان لعنة الجريمة العنيفة مسّت كثيرا من العوائل الأمريكية ومن ضمنها عوائلنا ، فعدد من المحررين والعاملين في

(التايم) الذين غطوا هذه الأحداث كانوا هـم أنفسهم مـن ضحايا هـذه الجرائم •

ثم تعدد رسالة الناشر الضحايا العاملين في المجلة وتصف الأحـداث التي صادفتهم من سرقة المنازل والهجوم بالسكاكين وقتل أحد المصورين فيها وقد غطى الموضوع في المجلة ، هؤلاء المحررون الذين أصابهم عنف الجريمة من جميع جوانبه ، فاتصلوا برجال القضاء والقانون والشرطة والباحثين الأجتماعيين وبرجال الأحصاء والهيئات الأخرى وبعض الأشخاص الذين يعنيهم الأمر ، وحصلوا على صور لبعض الضحايا • وقد أخـذ هذا لأهميته اثنتي عشرة صفحة من المجلة مع صور عديدة للضحايا من السود والبيض •

وهذا بعض ماجاء في هذا البحث ، نقتطف منه أقوال وآراء وأحاديث بعض من أتصل بهم المحررون ، ليكون عبرة وموعظة لم يعتبر ويتعظ •

[يوماً بعد يوم تدق ساعة الجريمـة المألوفـة في أمريكا أسـرع فأسرع • ففي كل ٢٤ دقيقة يحدث قتل في مكان ما من الولايات المتحدة • وفي كل عشر ثوانٍ يسطو اللصوص على بيت • وفي كل سبع دقائق يقع اغتصاب على امرأة ، وهذا يحدث في كل مكان ، في المدن والضواحي ••• والأهم من كل هذا ان الجرائم أصبحت أكثر وحشية وأكثر بُعداً عـن العقـل وأكثر عفوية من غير تدبر ، ولهذا فكلها أكثر رعباً وفزعاً ••• فهل نحن رهائن في حدود وطننا المستنير المتحضر ؟ ••• والخوف من الجريمة يشلّ المجتمع الأمريكي شللاً بطيئاً ••• وهكذا فان كل عائلة واحدة من بيـن ثلاث عوائل في الولايات المتحدة تعرضت لنوع من أنواع الجريمة الخطرة في السنة الماضية ، ومن النادر أن تجد أمريكياً لايعرف شخصياً ضحية واحدة

من ضحايا العنف ••• وكانت نتيجة ردّ الفعل من انتشار الجريمة ، أن تسلح الامريكيون أنفسهم ، وعند النوم يضعون سلاحهم بجانب منامهم ، وأشتروا كلاب الحراسة وأحكموا أقفال الحديد كأنهم يعيشون جنوداً مرابطين على الحدود •

ويقول الباحث في مكتب الأحصاء العدلي : ان أرقامنا لاترينا موجة جديدة من الجريمة ولكنها ترينا جحيم الجرائم الكثيرة • ويقول المدير السابق لهذا المكتب : خلال أربع أو خمس سنوات مقبلة فان كل عائلة في البلاد ستصيبها جريمة] •

ومن الصدف المتوقعة أنه بعد أيام قليلة من صدور المجلة حدثت محاولة اغتيال رئيس الجمهورية (رونالد ريكن Roland Reeagon في ٣١ آذار ١٩٨١ •

هذا هو الوضع في أمريكا كما يصفونه هم أنفسهم ، عدا مايحدث في المجتمع من تفسخ خلقي وتحطيم العائلة بكثرة الطلاق ، ونشوز المرأة وتهتك الشباب والشابات وأنتشار المخدرات ••• والأمريكيون هم أغنى شعوب العالم وأقواهم وأكثرهم صناعة وزراعة ورفاهاً ومالاً وثراء ، وقد صعدوا الى القمر ثم عادوا منه • ومثل مايحدث في أمريكا يحدث في بعض دول أوروبا ، حتى أصبح العنف والجريمة من سِمات هذا العصر •

وقد تنبأ بهذا الوضع قبل عشرات السنين المفكر الدكتور (الكسيس كاريل) في كتابه (الأنسان ذلك المجهول) فيقول[٢٩] : [ان التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة ، هو احدى الكوارث

---

(٢٩) الانسان ذلك المجهول ص٤٤

التي عانت منها الأنسانية ، فالبيئة التي ولدتها عقولنا وأختراعاتنا غير صالحة بالنسبة لقوامنا ولا بالنسبة لهيئتنا .

اننا قوم تعساء لأننا ننحطّ أخلاقياً وعقلياً . ان الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هي – على وجه الدقة – الجماعات والأمم الآخذة في الضعف ، والتي ستكون عودتها الى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها اليها ولكنها لا تدرك ذلك ، اذ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التي شيدها العلم حولها] .

هذا هو مجتمع الرفاه الأقتصادي والترف والبطر والتكالب على متع الحياة ، ونحن مازلنا نحاول جاهدين أن نتوجه اليه ونقلده ، وهذا ماسيحدث في بعض المجتمعات العربية والاسلامية اذا ما أتخذت هذا المجتمع مثلا أعلى لها .

واذا كان في أمريكا جماعة تقف بوجه هذا التيار الجارف ، وتحذّر وتنذر وتكتب وتؤلف ، فاننا لانملك مثل هذه الجماعة ولم نسمع مثل هذا الصوت ، ولا نملك الحرية لنقول شيئاً .

وهذه الآية الكريمة ليتنا نعيها ونتدبرها :

◉ أَوَلَمْ يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم ؟ كانوا أشدّ منهم قوةً ، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها، وجاءتهم رُسلُهم بالبيّنات ، فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

صدق الله العظيم !

ولعل خير ما أختتم به هذا الحديث ، أن أذكر ماقاله الأمام علي ، وهو يصف الدنيا وصفاً رائعاً فيه كل العبر والمواعظ لمن يدرك ويتأمل ويفكر • والأمام علي عليه السلام اكتوى بنار دنيا الناس ومرت عليه أحداث وخطوب قلّما تمر على انسان من لحم ودم فجاهد وكافح صابراً محتسباً ، وقد رضع الاسلام من نَبْعِه ومعينه ، وقدم لنا نصائحه في حقيقة دنيانا التي نعيشها •

وأقواله في الدنيا كثيرة ، وهي نابعة من صميم الحقيقة والواقع ، ومنها ماجاء في كتاب نهج البلاغة :

— أهل الدنيا كَرَكْبٍ[٣٠] يُسار بهم وهم نيام •

— [٣١]مثل الدنيا كَمَثَل الحية ، لَيِّنٌ مَسُّها والسُم الناقِع في جوفها ، يهوى اليها الغِرُ الجاهل ويحذرها ذو اللب العاقل •

— يا أبن آدم ماكسبت فوق قوتك فأنت خازن لغيرك •

— وقال عليه السلام في الدنيا :

ما أصف من دار أولها عَناء وآخرها فَناء ، في حلالها حساب وفي حرامها عقاب • مَن أستغنى فيها فُتِنَ[٣٢] ، ومن أفتقر فيها حزنَ • ومن ساعاها[٣٣] فاتَتْه ، ومن قعد عنها واتَتْه[٣٤] ، ومن أبصر بها

(٣٠) الركب ــ أصحاب الابل في السفر وهم عشرة ومافوق •

(٣١) السم الناقع ــ السم البالغ القاتل • الغر ــ الجاهل غير المجرب •

(٣٢) فتن ــ أصابته فتنة فذهبت بعقله وماله أو دينه ، والفتنة الاختبار والمحنة •

(٣٣) ساعاها ــ جرى معها في مطلبها فسبقته •

(٣٤) واتته ــ وافقته وطاوعته •

بصّرته(٣٥) ، ومن أبصر(٣٦) اليها أعمته •

وله خطب وأقوال كثيرة في وصف الدنيا وتحليلها وتنبيه الناس الى حقيقتها وهو من أعلم الناس بها ، ليستيقظوا من غفلتهم •

والسعيد من يستمع القول فيتبع أحسنه !!

---

(٣٥) من أبصر بها بصرته ـ أي من جعلها مرآة توضح له عظائم الاعمال صارت الدنيا له بصراً وحوادثها عبرا •

(٣٦) من أبصر اليها أعمته ـ أي من نظر اليها واشتغل بها فأنه يعمى عن كل خير •

ملحوظة ـ الاقوال الثلاثة الاولى من كتاب نهج البلاغة جـ٣ • ووصفه الدنيا جاء في جـ١ ص١٢٧

نحنُ والقرآنُ الكريمُ

لدينا ثلاثة أسئلة تحتاج الى تفكير ومناقشة القاريء ، لعلنا نخدم بالأجابة عنها هذا الدستور العظيم للأسلام : وهو القرآن الكريم ، وهي :

١ ـ هل يجب أن نطلب الى أولادنا قراءة القرآن في طفولتهم وصباهم ؟

٢ ـ هل تبقى بعض كلمات المصحف مرسومة كما رسمها الكاتبون في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ؟

٣ ـ لِمَ لايترجم المسلمون أنفسهم القرآن الكريم الى اللغات الحية في العالم ، وقد أهتم غير المسلمين بترجمته ؟

هذه الاسئلة الثلاثة يجيب عنها بعض علماء المسلمين والمفكرين الحريصين على هذا الكتاب المقدس ، الذي فيه هداية الأنسان ، كل انسان.

فنحن الذين قرأنا القرآن منذ صغرنا في الكتاتيب (الملالي) وختمناه ونحن لا نفقه معناه ولا نعرف رسم كلماته ، بل حفظناه عن ظهر قلب بصفحاته العديدة ، ولاقينا التعب والأرهاق من الكُتّاب ومن التكرار الذي لا أول له ولا آخر ، وبذلك حصل ردّ فعل عند كثير منا بسبب هذا الجهد الذي لم نكن نفهم معناه .

وكل فعل بجانبه (رد فعل) ، ولعل أصدق قانون من قوانين السلوك الأنساني وأبقاه : هو أن التطرّف يولّد على الدوام رد فعل معاكس ، لأننا ونحن صغار لم نكن لندرك أية فكرة أو عبرة أو مثل أو

عبارة بليغة وردت في القرآن الكريم ، بل كنا ببغاوات نلفظ ألفاظاً حفظناها وكأنها من لغات غريبة عن اللغة التي نسمعها ونتكلم بها •

وأساليب التربية والتعليم ، في هذا العصر ، صارت تخضع (لعلم النفس التربوي) • ولهذا العلم دراسات كثيرة جداً تبحث عن كل مرحلة من مراحل نمو الأنسان ، وما فيها من قابلية على التعليم وأهتماماته التي تناسب عمره الزمني وعمره العقلي • فالطفل غير الصبي ، والصبي غير المراهق وغير الشاب ، والشاب غير الكهل والشيخ • ولكل واحد منا مواهبه وقابلياته ، ولكل مرحلة من مراحل هذا النمو تبرز أمور وأشياء في ذات الأنسان كانت كامنة في هذه المرحلة أو المراحل السابقة ، وبعضها يدوم وبعضها يزول •

وأتذكر أنني زرت بلاد السويد سنة ١٩٦٣ بمنحة من مؤسسة (أليونيسكو) الثقافية التابعة لهيئة الأمم المتحدة • وبلاد ألسويد تقع في شمال أوروبا وقسم منها يدخل في ألمنطقة القطبية الشمالية ويسكنه شعب (اللاپس Lapps) وهو شعب ينتمي الى العنصر المغولي ، ويعتقد بعض العلماء أنه عنصر مغولي مختلط منذ أقدم العصور بالعناصر الأوربية • وأبناء هذا ألشعب يختلفون عن الشعب ألسويدي في هيكلهم وقامتهم وبشرتهم ولغتهم • وعندما زرت هذه المنطقة وأتصلت بهذا ألشعب أدخلني ألدليل الى كنيسة من كنائس اللاپس فرأيت العجب !

رأيت صورة السيد المسيح وأمه العذراء وهما من اللاپس تماماً ، فقلت للكاهن القَسّ ، وهو من الشعب السويدي : أنتم تصورون السيد المسيح وأمه العذراء بأجمل صورة وأكمل تكوين ، وقد رسمهما أعظم الرسامين

في العالم ، فكيف تصورونهما هنا من هذا الشعب ؟

قال القسّ : هذا واجب علينا لكي يعرف هذا الشعب أن السيد المسيح وأمه ليسا غريبين عنهم ، وهما ليسا من البيض مـن البشر فقط ، بل همـا منهم كذلك ، وبهذا نقربهما اليهم ، لئلا يحصل عندهم رد فعل فيبتعدوا عن الدين .

لقد أتيت بهذا المثل ليطلع القاريء على ما يحدث في هذا العالم مـن التطور في تعليم الدين وفهم نفسيات الشعوب وطريقة بث الروح الدينيـة فيهم ، ونحن مازلنا على طريقتنا منذ أربعة عشر قرناً ولم نتغير ولم ندرس ونهتم بكل ما يجري وما يحدث من نتائج سواء أكانت سلباً أم ايجاباً .

- ٢ -

ولم يكن علماء المسلمين غافلين عن هذه الظاهرة ، فيذكر ابن خلدون في (مقدمته) فصلاً (في تعليم الوِلدان وأختلاف مذاهب الأمصـار الأسلامية في طرقه) ويقول :[1] [ان تعليم الوِلدان للقرآن شعـار الدين ، أخذ به أهل المِلّة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم ، لما يسبق فيه الى القلوب من رسوخ الأيمان وعقائد من آيات القرآن ، وبعض مُتون الأحاديث ، وصار القرآن أصل التعليم الذي يُبنى عليه مايحصل بعدُ من الملكـات ....

وبعد أن يعدد ابن خلدون ويصف طريقة تعليم القرآن في الأندلس

---

(١) المقدمة ص٣٩٧

وأهل المغرب وأهل المشرق ، يذكر رأي أبي بكر محي الدين بن العربي [٢] الزاهد العالم الصوفي فيقول :

ولقد ذهب ألقاضي أبو بكر بن العربي في كتاب رحلته الى طريقة غريبة في وجه التعليم وأعاد في ذلك وأبدى ، وقدّم تعليم العربية والشعر على سائرالعلوم كما هو مذهب أهل الأندلس ، وقال : ان الشعر ديوان العرب ويدعو الى تقديمه ، وتعليم العربية في التعليم ضرورة فساد اللغة ، ثم ينتقل منه الى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين ثم ينتقل الى درس القرآن ، فانه يتيسّر عليه بهذه المقدمة ، ثم قال : وياغفلةَ أهل بلادنا في أن يُؤخَذ الصبي بكتاب الله أول أمره ، ويقرأ ما لايفهم ، وينصب ـ يتعب ـ في أمره ، غيره أهم عليه ٠٠٠٠ ثم يقول ابن خلدون ـ ولو حصل اليقين بأستمرار الصبي في طلب العلم وقبوله التعليم ـ لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي أولى ما أخذ به أهل المغرب والمشرق] ٠

هذه دراسة نفسية لأسلوب تدريس القرآن للصبيان ، ومحي الدين بن العربي ـ أو ابن عربي ـ توفي سنة ٦٣٨ هـ ـ ١٢٤٠ م وقد مضى على وفاته ٧٤٢ سنة وهو من أعلم الناس وأزهدهم وأتقاهم وأحرصهم على القرآن الكريم ، فماذا فعلنا نحن ؟

---

(٢) أبو بكر محي الدين بن العربي ـ وأحيانا يقولون ابن عربي ، صوفي معروف بمذهب وحدة الوجود ويلقب بالشيخ الاكبر ٠ نشأ في الاندلس وأرتحل الى المشرق ٠ تبلغ مصنفاته المائتين ذكر منها المستشرق (بروكلمان) أكثر من ١٥٠ مصنفا وأهمها : الفتوحات المكية وفصوص الحكم ، وفيها يمتزج النظر الفلسفي بالذوق الصوفي ٠

ان الكتاتيب أوشكت الآن على الزوال في معظم البلاد الأسلامية ،وصار التعليم مدنياً مع شيء قليل من دراسة القرآن في المدارس • وأنا لاأريد أن أصف القائمين على تعليم القرآن من المعلمين والمعلمات ، ومدى ثقافتهم الدينية وحرصهم على القرآن ، فهذا معروف لدى جميع من لهم صلـــة بمهنة التعليم والأشراف عليه أو الآباء الحريصين على تربية أبنائهم تربية روحية •

ثم اذا كان رأي ابن عربي يخص الصبيان العرب فما حال غير العرب من ألمسلمين الذين لايفقهون من العربية شيئا ثم يقرأون ألقرآن ؟؟

ان هذه الظاهرة خطيرة جداً ، ومن واجب الهيئات الدينية الحريصة على الأسلام أن تلتفت اليها وتضع الأسس والطرق الكفيلة بتدريس وتعليم القرآن الكريم لأطفال وصبيان العرب ومن المسلمين • وبدون أن نُحبّب القرآن لأولادنا منذ نعومة أظفارهم بالطرق الصحيحة التي تناسب أعمارهم ومستوى عقولهم لينشأوا وفي نفوسهم بذرة (الدين) ، تضيع حقيقـــة الاسلام الذي جاء لخير وسعادة الأنسان ، في كل مراحل حياته •

وهذا عامل مهم جداً من عوامل بُعْدِ المسلمين عن القرآن في معظم البلاد الأسلامية ، والتيارات المادية والسياسية وحب الدنيا سوف تجرفنـــا وتكتسح كل شيء أمامها •

◉ بل هو آيات " بيّنات في صدور الذين أوتو ألعلم وما يجحد بآياتنا الا الظالمون • والذين أوتو العلم هم الذين يدركون ويفهمون معانيه وآياتـه ومواضع العبرة فيه ـ وهذا هو نص الآية ـ فكيف يستطيع طفل أو صبي وهو لايعي من الدنيا شيئا أولا لايعرف اللغة العربية أن يدرك آيات القرآن ويفقه معانيها ، ثم نُلزمه قراءته بدون أن نحبّبه اليه ونقرّبه منه ؟؟

كتابـة المصحف

أما موضوع رسم الكلمات في المصحف ، فأنا أنقل بعض ماجاء فيـــه مخالفاً لما نكتبه الآن ، قبل أن أنقل رأي العالم ابن خلدون فيه .

فلدي نسختان من المصحف الشريف،احداهما بخط[٣] (حافظ عثمان) المعروف بـ (قايش زادة) والنسخة الثانية بخط[٤] (مصطفى نظيف) الشهير بـ (قدرغه‌لي) والنسختان تتفقان في رسم بعض الكلمات وتختلفان في بعضها وكلاهما لايُناسب ما درجنا على كتابته حسب قواعد الاملاء وجودة الكتابة .

ومن أمثلة ما أتفقتا عليـــه :

١ ـ حذفُ الألف من أواسط الكلمات ووضعُ ألف صغيرة بدلها فوق الكلمات في مكان الألف المحذوفة مثل : السـماوات ـ السـموات . القيامة ـ القيمة . العالمون ـ العلمون . الشاكرون ـ الشكرون . سلطان ـ سلطن ، الملائكة ـ الملئكة ....

٢ ـ ابدال الألف من كلمات (زكاة ، صلاة ، حياة) بالواو في رسمها هكذا (زكوة صلوة ، حيوة) ووضع ألف صغيرة فوق الواو . واماله الألف

---

(٣) أقرت هذه النسخة لجنة مراجعة المصاحف بالادارة العامة للبحوث الثقافية الاسلامية بمشيخة الازهر بقرارها الصادر في مايس ١٩٦٢

(٤) طبعت النسخة بتصريح مـن مشيخة الازهـر ومراقبـة البحوث الثقافية الاسلامية ، وتقرير اللجنة المختصة برقم ٧٧ في ٧ أغسطوس سنة ١٩٦٥ ربيع الاول ١٣٨٥ هـ . وقد طبعتها دار الاندلس في بيروت وعليه عبارة (مصحف الحرمين) . وقد رسم وضبط هـــذا المصحف على ما يوافق رواية حفص بن سليمان الاســدي الكوفي لقراءة عاصم بن أبي النجود الكوفي ، ورسمه على مايوافق قواعـد التجويد وأحوال المد والوقف والامالة الى غير ذلك ...

الى صورة الياء وهي كثيرة جداً مثل : مولاهم = موليهم ووضع ألف صغيرة على الياء وامالة ألالف غيّرت كثيراً في رسم الكلمات•

ومن أمثلة ما أختلفتا عليه ولا يناسب مانرسمه الآن :

١ ـ كلمة (آيات) ، ففي نسخة مصطفى نظيف رسمت (ءايت) بهمزة مفردة وألف صغيرة فوق الكلمة بين الياء والتاء •

وفي نسخة حافظ عثمان رسمت ('ايت) بوضع ألف صغيرة يمين الألف ، وألف صغيرة فوق الكلمة بين الياء والتاء • وهكذا يحصل في كل مـدّ يأتي في أول الكلمة •

٢ ـ كلمة (رآه) جاءت في نسخة حافظ عثمان (رَ'اه) بفتحة فوق الراء وألف صغيرة يمين الألف الطويلة •

وفي نسخة مصطفى نظيف جاءت (رءاه) بهمزة بعدها ألف طويلة •

٣ ـ جاءت الآية ١٣ في سورة القيامة [يُنَبَّأُ الأنسان يومئذ بما قدّم وأخّر) • ففي نسخة حافظ عثمان رسمت (ينبّؤا الأنسان) وفي نسخة مصطفى جاءت (ينبّؤا الأنسن) • وقد أتفقتا في (ينبّؤا) وهي لاتناسب ما نكتبه ، وأختلفتا في (الأنسان) لأن مصطفى رسمها (الأنسن) بوضع ألف صغيرة بين السين والنون •

٤ ـ والنسختان تحذفان ياء المتكلم وتكون الكسرة بدلها ، فقد جاءت الآية ٩٩ من سورة (المؤمنون) : [حتى اذا جاء أحدهم الموت قال ربي أرجعوني] ففي نسخة حافظ عثمان (ربِ أرجعونِ) وفوق النون وضع كلمة (لا) أي لاتقف بل أستمر في القراءة • أما مصطفى فلم يضع (لا) •

٥ ـ جاءت في سورة يوسف الآيّة ٢٩ [وقال نِسْوَةٌ في المدينةامرأة العزيز تُراود فتاها عن نفسه] • ففي نسخة حافظ عثمان [وقال نسوة في المدينة امرات العزيز تراود فتيها عن نفسه] فرسم امرأة (امرات) بفتحة فوق الألف وتاء طويلة ورسم فتاها (فتيها) بياء بدل الألف للأمالة ووضع ألفاً صغيرة فوق الياء •

أما مصطفى نظيف فرسمها [وقال نسوة في المدينة امرأت العزيز ترود فتىٰها عن نفسه] فرسم امرأة بتاء طويلة ورسم تراود (ترود) بوضع ألف صغيرة بين الراء والواو ، ورسم فتاها (فتىٰها) بركزة أو ياء بدون نقطتين ووضع ألفاً صغيرة فوقها• وهكذا أختلفت هذه الآيةفيالنسختين في ثلاث كلمات•

٦ ـ وجاءت الآية (٧) من سورة الفرقان [وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق] وقد رُسمت (مالهذا) في النسختين (مال هذا الرسول) ومثلها جاءت الآية ٣٦ من سورة المعارج (فما للذين كفروا قِبَلَك) وقد رُسمت (فمال الذين) في النسختين ، وهكذا •••

٧ ـ وجاءت الآية ٢١ من سورة النمل في الحديث عن النبي سليمان والهدهد [لَأُعذبنه عذاباً شديدا أو لَأذبحنّه] وقد رسما (لأذبحنّه) هكذا [لاأذبحنّه] في النسختين •

٨ ـ وجاءت الآية ٤٧ من سورة الذّارِيات [والسماءَ بنيناها بأيدٍ وانا لَموسِعون] فرسما (بأيد) هكذا (بأييد) بياءين في النسختين •
وقد اعترض على رسم هاتين الكلمتين (لأذبحنّه وبأيد) ابن خلدون كما سنرى • هذا قليل من كثير جداً يصعب احصاؤه مما رسما كلمات المصحف، فكيف يستطيع غير العربي أن يتعلم العربية ويقرأ القرآن وقد رسموا

كلماته بما يخالف قواعد الأملاء ألتي نتبعها ، وعدد المسلمين غير العرب مئات الملايين ؟

حتى العربي الذي لم ينل حظاً من اللغة لايستطيع قراءة المصحف ان لم يكن قد أستمر علـى قراءته وسماعه ، لان نُسخ المصحف المطبوعة والمجازة من هيئات العلماء تختلف في رسم بعض كلما تها وهي لاتتفق مع قواعد الأملاء المعروفـة •

فلماذا لانرسم كلمات المصحف كما نلفظها ونكتبها ونعطي مجالاً لكل مسلم من العـرب وغير العـرب ومن بقية المذاهب والأديان أذا أرادوا ألأطلاع والهداية الى الصراط المستقيم •

قد يقول قائل : ان رسم الكلمات كما جاء في مصحف الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، هو مراعاة للهجات القبائل أو القراءات السبع أو العشر أو قواعد التجويد أو التبّرك • لكن القرآن الكريم وحّد اللهجات، والقراءات السبع أو العشر هي للمختصين من العلماء ، وعدد هؤلاء قليل، ونسخ المصحف المطبوعة تعدّ بالملايين وموجودة في كل بيت ، وأما التبرُك بما فعل الصحابة ، فالبركة هي بالايمان والعلم والعمل والفهم لما جاء في هذا الكتاب العظيم •

— ٤ —

ولعل ابن خلدون أقدم من بحث هذا الموضوع في (مقدمته)•وقد ذكر فصلاً خاصاً في [أن الخط والكتابة من عداد الصنائع الأنسانية] فهو بعد أن يتحدث عن قيمة الكتابة وأنها من خواص الأنسان التي يتميز بها عن الحيوان ، وعن قيمتها في نقل العلوم والمعارف ، وأنها من أسس

الحضارة ، يرى أن الخط العربي بلغ الجودة والأتقان في دولة (التَبَابِعَة) في اليمن بسبب ازدهار الحضارة ، وكان ل (حِمْيَر) من التابعة كتابة تسمى (المُسْنَد) وحروفها منفصلة .

وأبن خلدون يذكر دائماً أن الخط والكتابة من الصنائع ، وانها تزدهر حيث تزدهر الحضارة ، ويقول (٥) [ومن حِمْيَر تعلمت مُضَر ـ ومنها قبيلة قريش ـ الكتابة العربية ، الا أنهم لم يكونوا مجيدين لها ، شأن الصنائع اذا وقعت بالبدو فلا تكون محكمة المذاهب ولا مائلة الى الأتقان والتنميق ... أما مُضر فكانوا أعرق في البدو وأبعد عن الحضر من أهل اليمن وأهل العراق وأهل الشام ومصر ، فكان الخط العربي لأول ألأسلام غير بالغ الغاية من الاحكام والأتقان والأجادة ، ولا الى التوسط لمكان العرب من البداوة والتوحُش وبعدهم عن الصنائع .

وأنظرْ ما وقع لأجل ذلك في رسمهم ألمصحف،حيث رسمه الصحابة بخطوطهم ، وكانت غير مُستحكَمة في الأجادة ، فخالف الكثير من رسومهم ما أقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها ، ثم أقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبرّكاً بما رسمه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ... فأُتبع ذلك وأُثبت رسماً ، ونبّه العلماء بالرسم على مواضعه ، ولاتلتفتنّ في ذلكالىمايزعمه بعض المغفّلين من أنهم كانوا مُحكِمين لصناعة الخط ، وأن ما يُتَخَيّل من مخالفة خطوطهم لأصول

(٥) المقدمة ص٢٩٤

الرسم ليس كما يُتَخَيّل ، بل لكلها وجه .

ويقولون في مثل زيادة الألف في (لاأذبحنّه) [٦] أنه تنبيه على أن الذبح لم يقع ، وفي زيادة الياء في (بأييد) أنه تنبيه على كمال القدرة الألهية .

وأمثال ذلك مما لا أصل له الا التحكم المحض ، وما حملهم على ذلك الا اعتقادهم أن في ذلك تنزيهاً للصحابة عن توهم النقص في قلة اجادة الخط ، وحسبوا أن الخط كمال فنزهوهم عن نقصه ونسبوا اليهم الكمال بأجادته ، وطلبوا تعليل ما خالف الأجادة في رسمه وذلك ليس بصحيح .

ولايكتفي ابن خلدون بهذا القول بل يستمر فيالتعليل ويقول :

وأعلم أن الخط ليس بكمال في حقهم ــ أي الصحابة ــ اذ الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية ، والكمال في الصنائع اضافي ليس بكمال مطلق ، اذ لايعود نقصه على الذات في الدين ولا في الخِلال ، وانما يعود على أسباب المعايش وبحسب العمران والتعاون عليه لأجل دلالته على ما في النفوس .

وقد كان صلى الله عليه وسلم أُمّيّاً ، وكان ، ذلك كمالاً فيحقه بالنسبة الى مقامه لشرفه وتنزهه عن الصنائع العملية التي هي أسباب المعاش والعمران كلها . وليست الأُمية كمالاً في حقنا ، أذهو ــ أيالرسول ــ منقطعالى ربه ونحن متعاونون على الحياة الدنيا ، شأن الصنائع كلها . حتى العلوم

---

(٦) لا أذ بحنه ــ جاءت فيرقم ٧ من أخطاء الرسم والاصل لاذبحنه .
(٧) بأييد ــ جاءت في رقم ٨ من الاخطاء والاصل بأيد .

الأصطناعية فان الكمال في حقه هو تنزهه عنها جملة بخلافنا • ثم لما جاء الملك للعرب وفتحوا الأمصار وملكوا المالك ونزلوا البصرة والكوفة ، وأحتاجت الدولة الى الكتابة ، استعملوا الخط وطلبوا صناعته وتعلمه ، وتداولوه فترقت الأجادة]

أليس في شرح ابن خلدون وتفصيله وأستشهاده ، اقناع لنا على الرجوع الى ما نحن عليه من الكتابة ورسم كلمات المصحف ليكون القرآن الكريم سهل القراءة والفهم لكل من أراد ذلك ؟

وأبن خلدون مؤمن عالم فقيه مفكر ، لايمكن الطعن بآرائه وبطيب ونبل قصده وحبه وحرصه على القرآن دستور الأسلام والمسلمين •

— ٥ —

ترجمة القرآن الكريم

أما موضوع [ترجمة القرآن] الى لغات المسلمين المختلفة واللغات الحيةفي عالمنا هذا فهو مهم جداً وخطير جداً ، وعلينا أن ندرسه ونتأمله ونناقشه ونفكر فيه بعقول مفتوحة تدرك الواقع المحسوس ، وتتجرد من السدود والقيود التي حصرتنا قروناً عديدة في نطاق محدود ، وعلينا أن نفتح النوافذ لنتنفس الهواء ونرى وجه العالم وعلماء المسلمين المفكرون الحريصون على الاسلام كثيرون والحمد لله •

وخطورة هذا الموضوع ناشئة من أن التعليم قد انتشر في كل أنحاء العالم ، وهو تعليم مدني — في معظمه — يهيىء للأنسان وسائل العيش ، أما التعليم الديني وبثّ القيم الروحية وألأهتمام بشعائر الدين ، فقد ضعفت

في أكثر المجتمعات وصار الأنسان المسلم غير العربي ، الذي تفتحت عيناه وتعلم ووعي ، يسأل نفسه : كيف أعبدالله بلغه لاأفهمها ولاأعـــــرف ما أعني وما أقول ؟

وكيف أخاطب الله وأدعوه وأطلب اليه ما أريده بلغه لاتعبّر عـــن قصدي وحاجتي ومطلوبي ، وهو القائل : أدعوني أستجبْ لكم ؟

والله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز ـ الآية ٢٢ من سورة الروم

◉ ومن آياته خلقُ السماوات والأرض وأختلافُ ألسنتكم وألوانكم ، ان في ذلك لآيات للعالمين •

فلماذا لايفكر العالمون بهذه الآية التي خصّهم بها الخالق العظيـم ؟ ولماذا لا يجتمعون ويتناقشون ويفكرون ويتعاونون على فهم المراد منهـا ؟ واللغات كلها ايحاء من الله للأنسان ، وهي أعظم ما يتميز بها خليفته فـي أرضه على جميع مخلوقاته • أليس في هذه الآية دلالة واضحة وتوكيد على مسؤوليتهم وحثهم على فهم الحكمة من اختلاف اللغات والأجناس ، وقـد أعطاهم ألله موهبة الفكر والعلم والأسلام دين واسع رحبُ الجوانب ؟

ان الأيمان وحده غير كاف لأنسان هذا العصر ما لم يستند على العلم واذا كنا في الماضي نسكت عن هذا ، وقد يسامحنا الخالق فيه ، فعصرنـــا هذا هوعصر علم وفهم وأدراك ، وبدون هذا كله فان الأيمان لايتغلغل في النفوس ، بلْ تذهب النفوس الى ما تشتهي من متع الدنيا وشهواتها •

أتذكر أنني زرت (تركيا) وحضرت صلاة الجمعة في احد مساجـد (استنبول) ، وفي خطبة الجمعة قرأ الخطيب آية من القرآن الكريم باللغة العربية ـ وكان قد درس في الجامع الأزهر كما علمت منه ـ وأخذ يفسرها

باللغة التركية ، وأستمر في خطبته باللغة التركية حتى انتهى ، والمصلون جميعاً ، على كثرتهم ، ليس بينهم من يعرف اللغة العربية أو من يستطيع قراءة القرآن قراءة صحيحة .

فما معنى هذا ؟

معناه أن المسلم التركي يستمع الى بعض الآيات في صلاة الجمعة ، وقد حفظ بعض السور القصار والآيات والأدعية التي تعينه على اتمام شعائر الصلاة وربما لا يفقه معنى بعض أو معظم ما حفظه .

فأين القرآن وأثره في المسلمين ؟

قد يكون بين الشيوخ الأتراك من يقرأ القرآن قراءة صحيحة ، ولكن المهم هو الجيل الجديد الذي انقطعت الصلة بين ماضيه وحاضره وهنا يكمن الخطر عليه وعلى مستقبله وسعادته في حياته . والحياة بدون ايمان صحيح وقيم روحية لا لذة فيها ولاطعم .

والاسلام ، بدون دستوره القرآن ، قشرة رقيقة أو صبغة خفيفة لاتبقى ولاتدوم مع الزمن ، وليس لها من الأسلام الا الأسم .

والظاهرة الخطيرة هي أن بعض المستشرقين قد ترجموا القرآن الى لغاتهم وبعض هؤلاء من رجال الدين والبعض الآخر علماني لايؤمن بمبدأ روحي ، وهم يجهلون أسرار اللغة العربية وبلاغتها وفصاحتها ، وليس لديهم الأطلاع الكافي والفهم لأسباب التنزيل الى غير ذلك مما يجب أن تتوفر في المترجم ليؤدي واجبه . والقرآن الكريم لايمكن أن يترجمه الا مسلم تشرّب بروح الاسلام وفهم أسرار اللغتين : لغة القرآن واللغة التي يترجم اليها .

والترجمة فن صعب ، ولا يمكن لشخص يترجم كتاباً سماوياً في غاية البلاغة والأعجاز ، بنقل كلماته وترجمتها ترجمة حرفية مالم يكن يعرف مدلولها وقيمتها البلاغية في لغته التي يترجم اليها وقد تشبّع بروح الكتاب وآمن به ايماناً داخلاً في أعماق قلبه ، فمن يدري مافعل هؤلاء المترجمون في ترجمة القرآن والعبث به عن جهل أو قصـد ؟

وشاهدُ ذلك ماقاله الكاتب الفيلسوف المفكر (توماس كارلايـل) في كتابه (الأبطال) • وهذا الرجل دافع عن الأسلام وعن الرسول صلـى الله عليه وسلم دفاعاً لم يقم ببعضه أي عالم أو مفكر غربي منصف ، وقد فنّـد هذا الرجل كل ماقاله المغرضون في الأسلام ورسول الأسلام بأسلوب المؤمن الواثق مما يقوله بالمنطق والتعليل والمحاكمة العقلية • وهو في حديثه عن القرآن يقول : (٨)[أما القرآن فان فرط اعجاب المسلمين به وقولهم بأعجازه هو أكبر دليل على اختلاف الأذواق في الأمم المختلفة • هذا وان الترجمة تذهب بأكثر جمال الصنعة وحسن الصياغة ، ولذلك فلا عجب اذا قلت : ان الأوروبي يجد في قراءة القرآن أكبر عناء ، فهو يقرأه كما يقرأ الجرائد ، لا يزال يقطع في صفحاتها قطاراً من القول المملّ المتعب ، ويحمل على ذهنه هضاباً وجبالاً من الكلام لكي يعثر من خلال ذلك على كلمـة مفيدة ، أما العرب فيرونه على عكس ذلك ، لما بين آياته وبين أذواقهم من الملاءمة ، ولأنه لم يُترجَم لتذهب الترجمة بحسنه ورونقه] •

وفي قول هذا الرجل العالم المفكر حقيقتان :

الاولى ــ أن أذواق الشعوب تختلف في تذوق النصوص ، لذلك اذا

(٩) الابطال ص٨٣

أردنا الترجمة فعلى المترجم أن يكون بارعاً في فهم ذوق الشعب الذي يترجم من لغته وذوق الشعب الذي يترجم الى لغته ، وهذا شرط لكل من يقـــوم بالترجمة •

والثانية ـ أن التراجم التي ظهرت للقرآن الكريم في اللغات الاوربية هي مملّة ومُتعبة ، وهنا يكمن الخطر الذي أشرنا اليه ، وبسببه أصبح القرآن الكريم قولاً مملاً لايجد فيه المسلم غير العربي أو غير المسلم ـ الذي يريد الاطلاع والدراسة ـ مايشوقه الى قراءته •

وهذا مايدفعنا الى دعوة الهيئات العلميـة الأسلاميـة ، والمؤتمـرات الأسلامية ، وهي تنعقد بين وقت وآخر ، وتتداول في شؤونها المختلفـة ، ويتشكل في بعضها لجان ثقافية ، أن تُعنى وتفكر في موضوع ترجمة القرآن الكريم من جميع جوانبه بعقول متفتحة النوافذ • وفي العالم الأسلامي رجال في مستوى عال من العلم والفقه والشعور الديني والحرص على الأســلام والفهم لواقع المسلمين غير العرب ، وفي أستطاعتهم أن يقوموا بعمل يخدم المسلمين في جميع بقاع الأرض عن طريـق القـرآن : دسـتور الاسـلام والمسلمين • وبذلك يكون عملهم هو المرجع الذي يعتمد عليه المسلمون ، وعندئذ يقف غير المسلمين عند حدودهم ويكفّوا عن ترجمته ، لأنهم ليسوا من أهله ومن رجاله •

— ٦ —

وهذا ملخص ماجاء في الموسوعة العربية الميّسرة عن ترجمة القرآن الكريم : [١٠]حاول بعض المسلمين ترجمة القرآن الى اللغات : التركية

(١٠) الموسوعة العربية الميسرة ص١٣٧٤ • وقد حاولت حذف بعض أسماء المترجمين وذكرت السنوات واللغات التي ترجم القرآن اليها لان تلك الاسماء غير مشهورة ولا فائدة من ذكرها للقاريء •

والأوردية ـ الهندية ـ والفارسية والجاوية والملاوية ـ الملايو ـ والصينية ، وغيرها من اللغات الشرقية ، ومعظم هذه الترجمات تتضمن الأصل العربي بين أسطر أللغة المترجم اليها ٠

وحاول كثير من علماء أوربا ترجمة القرآن بالرغم من الصعوبات الكثيرة ٠ وصدرت أول ترجمة الى اللاتينية في أوربا بين سنتي ١١٤١ ـ ١١٤٣م ولم تنشر الا بعد أربعة قرون ٠ ثم ترجم الى الأيطالية والهولندية والألمانية سنة ١٦١٦ والى الفرنسية سنة ١٦٤٧ والى الانكليزية سنة ١٦٦٩٠ ويوجد نصّ لاتيني آخر لأحد الآباء سنة ١٦٩٨م ٠

وترجمه الى الأنكليزية ج٠سيل G. Sale سنة ١٧٣٤ وطبع نص هذه الترجمة مراراً ٠ وصدرت الترجمة الروسية سنة ١٧٧٦ في بطرسبورج ، والفرنسية سنة ١٧٨٣ والألمانية سنة ١٧٧٣ ٠

وأجود الترجمات الألمانية ترجمة (فلوجل) سنة ١٨٤١ ٠ وتمتاز ترجمة ج٠م رودويل J.M. Rodwell الأنكليزية بأن سُوَرها مرتبة بحسب ترتيبها التاريخي ٠ وصدرت ترجمة ف٠هـ٠ بالمر F. H. Palmer سنة ١٨٨٠ بالانكليزية ٠

وهناك مالايقل عن أربعين ترجمة مختلفة للقرآن ، وفي أكثرها شروح وتعليقات وقد صدرت في السنوات الأخيرة ترجمة ايطالية لبونللي سنة ١٩٢٩ وأخرى باللغة التشيكية ـ لغة جيكوسلوفاكيا ـ ترجمها أ٠ر٠ نيكل سنة ١٩٣٤ ، وثالثة باللغة الأنكليزية ترجمة (مولاي شير علي) في باكستان سنة ١٩٥٥ وأخرى بالأنكليزية ترجمة ن٠داود بلتيمور سنة ١٩٥٦ ٠

وتوجد ترجمة بلغة (الأسبرنتو)[11] Esperanto وهي اللغة العالمية قام بها المسلم الأنكليزي خالد شلدرك سنة ١٩١٤ . وتقوم الآن بعض الهيئات الدينية في الجمهورية العربية المصرية بترجمة معاني القرآن الى بعض اللغات الأجنبية]

ومن التراجم التي لم تذكرها الموسوعة العربية ترجمة المستشرق الروسي (سابلوكوف) وترجمة المستشرق الهولندي (توماس أربانيوس) وهو رجل دين مسيحي وصاحب مطبعة (ليدن) الشهيرة .

وقد حصلت على نسخة من ترجمة المسلم الأنكليزي (محمد مارمادوك پيكتهول M. Mar maduke Piekthall ترجمه سنة ١٩٥٣ بعنوان (معنى القرآن المجيد) - ترجمة تفسيريه - ويقول في مقدمة ترجمته انه لأول مرة يترجم القرآن الى الأنكليزية انكيزي مسلم ، ويرى أن الذي لايحمل عقيدة الاسلام لايستطيع ترجمته بدقة . ويعترف بأن ترجمة في الغالب حرفية،مختاراًأنسب الكلمات الأنكيزية،وأنهذه ألترجمة ليست هي القرآن المجيد الذي يدعو الى الأستغراق الروحي ، ولكنها ترجمة لاعطاء معنى القرآن في بعض روعة وسحر اللغة الأنكليزية ، وهي ليست في مكانة القرآن في اللغة العربية على كل حال .

ويحدثنا المؤلف عن الصعوبات التي جابهها وعن اتصالاته بشيخ الأزهر

---

(١١) لغة الاسبرنتو - لغة عالمية اخترعها العالم البولوني (زامنهوف) وأتجه بها الى التبسيط وطبع قواعدها بطابع اللغات اللاتينية وأشتق الفاظها من الالفاظ المشتركة من اللغات الاوربية الرئيسية وأنتشرت في بعض البلدان كلغة يتكلم بها جميع الناس وطبعت بها كتب ونشرات - وتوفى سنة ١٩١٧ .

وبعض العلماء المصريين الذين يجيدون الأنكليزية ولهم دراسات فقهية ، وراجع كتب الحديث وتفسير الزمخشري والبيضاوي والجلالين ، وقد جعل في مقدمة كثير من السور شرحاً لأسباب تسميتها وما فيها من أسباب النزول والموعظة التي فيها .

هذا مايمكن أن نذكره عن ترجمة القرآن وتعدد الترجمات من اللغة الواحدة أحياناً ، لعلنا ندرك خطورة هذا الوضع ، لأن لكل مترجم طريقاً وأتجاهاً وفهما وأسلوباً خاصاً ، وهم ليسوا من المسلمين ، عدا القليل .

ومثال ذلك ، أن الأنكليزي ج.م رودويل J. M. Rodwell ترجم القرآن بعنوان (القرآن The Koran وبدأ بالسور حسب ترتيبها التاريخي لابحسب ذكرها في المصحف ، فبدأ بسورة (العَلق لابسورة (الفاتحة) . وقد حصلت على نسخة من هذه الترجمة طبعت آخر مرة سنة ١٩٤٥ وفيها مقدمة للمستشرق (مارجليوث) يثني فيها على هذه الطريقة ويعللها تعليلاً لانوافق على ما جاء فيه ولا يوافق عليه كل مسلم .

أفلا يحق لنا أن ندعو علماء المسلمين أنفسهم الى ترجمة القرآن وجَعْل هذه الترجمة في كل لغة هي النص الأصلي ، وما عداها لايمكن الأعتماد عليه ، وبذلك نقطع الطريق على كل من يحاول ترجمته ، وهم ليسوا من أهله وعلمائه ورجاله ؟؟

والأسلام دين السماحة والمرونة وسعة الصدر واليُسر ومجال للاجتهاد والتفكير .

◉ يريد الله بكم اليُسر ولايريد بكم العُسر .

وفيما رواه البَغوي عن معاذ بن جبل [(١٢) أن الرسول لما بعثه الى اليمن قال : كيف تقضي اذا عُرض عليك قضاء ، قال : أقضي بكتاب الله، قال : فان لم تجد في كتاب الله ، قال : فبسنة رسول الله ، قال: فان لم تجد في سنة رسول الله ، قال : أجتهد ولا آلو - أي لاأقصّر في اجتهادي - قال : فضرب رسول الله على صدره وقال : الحمد لله الذي وفّق رسولَ رسولِ الله لما يُرضي رسولَ الله .

وما رواه البغوي عن ميمون بن مهران قال : كان أبو بكر اذا ورد عليه الخصوم نظر في كتاب الله ، فان وجد فيه ما يقضي بينهم قضى به، وان لم يكن في الكتاب وعلم عن رسول الله في ذلك سُنّةً قضى بها ، فان أعياه أن يجد في سنة رسول الله ، جمع رؤوس الناس وخيارهم وأستشارهم ، فان أجمع رأيهم على أمر قضى به ، وكذلك كان يفعل عمر وأقرّهما على هذا كبار الصحابة ورؤوس المسلمين ، ولم يُعرف بينهم مخالف في هذا الترتيب]

هذه مرونة الأسلام في حل مشاكل المجتمعات التي تتطور بين وقت وآخر منذ عهد الرسول الكريم والخلفاء من بعده والمفكرين من علماء المسلمين في العصور المختلفة . وعالمنا اليوم قد تطور تطوراً سريعاً واصبحنا أمام مشاكل معقدة جداً تحتاج الى دراسة وفهم لوضع الحلول وتوجيه المجتمع وجهة سليمة يرتضيها الأسلام .

وأرى من الضروري ذكر بعض ما جاء من أقوال بعض الفقهاء في ترجمة القرآن الكريم ليكون القارىء على علم بما جرى وبما يجري .

---

(١٢) علم أصول الفقه وخلاصة التشريع الاسلامي ص١٩

[(١٣) ان ما تُرجمت به سورة أو آية بلغة أجنبية غير عربية لايُعَدّ قرآناً مهما رُوعي من دقة الترجمة وتمام مطابقتها للمترجَم في دلالته • لأن القرآن ألفاظ عربية خاصة أُنزلت من عند الله • نعم لو كان تفسيرالقرآن أو ترجمته يتم بواسطة من يُوثَق بدينه وعلمه وأمانته وحذقه ، يسوغ أن يُعتَبر هذا التفسير أو هذه الترجمة بياناً لما دل عليه القرآن ومرجعاً لما جاء به ، ولكن لايُعتبر هو القرآن ، ولاتثبت له أحكامه ، فلا يُحتج بصيغة عبارته وعموم لفظه واطلاقه ، لأن ألفاظه وعباراته ليست ألفاظ القرآن ولاعباراته ، ولاتصح الصلاة به ، ولايُتَعبّد بتلاوته •••

وما نُقل عن الأمام أبي حنيفة من أنه جَوّز قراءة القرآن في الصلاة بالفارسية لايدل على أن الترجمةَ قرآنٌ وتثبت لها أحكامه ، لآن أبا حنيفة انما جوّز القراءة بالفارسية لمن لايعرف العربية ولايقدر على القراءة بها ، لأنه في هذه الحال سقط عنه فرض القراءة للقرآن ، فاذا قرأ بلغته فهو ذكر لله ولا مانع منه •

وقد روي أن ابا حنيفة رجع عن هذا ، ورأى ما ذهب اليه سائر الأئمة من أن العاجز عن النطق بالعربية يصلي (ساكتاً) ولايُكلّف بقراءة القرآن ، اذ لاتكليف الا بمقدور ، كما يصلي المصلي قاعداً اذا عجز عن القيام]

والأمام أبو حنيفة رجل الحرية والتسامح وسعة الرأي في القضاء والتجارة وحقوق المرأة، وقد نبغ في الفقه نبوغاً عظيماً [(١٤) كان يطرح

---

(١٣) المصدر السابق ص٢١
(١٤) المصدر السابق ص٣١٦

ألمسألة على من يحضر من طلاب العلم ، ويناقشون فيها جميعاً حتى يستقر الرأي على جواب فيها أو يحتفظ كل شخص برأيه ، وبهذاكانت مسائل فقهه لاتتقرر الا بعد المناظرة والأخذ والرد فيها غالباً .

وكانت خطته في أستنباط الأحكام الفقهية ماقاله عن نفسه : اني آخذ بكتاب الله اذا وجدته ، فما لم أجده أخذت بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والآثار الصِحاح عنه التي فشت في أيدي الثِقات ، فاذا لم أجد في كتاب الله ولاسنة رسوله أخذت بقول أصحابه ، مَن شئت وأدع من شئت ، ثم لا أخرج عن قولهم الى قول غيرهم ، فاذا انتهى الأمرالى ابراهيم والشعبي والحسن وابن سيرين وسعيدين المسيب[١٥] ، فعليّ أن أجتهد كما أجتهدوا]

هذه هي العقلية العلمية المتفتحة للحياة ، التي يريدها الأسلام : وهي دراسة وفكر ومناقشة وأجتهاد . فلماذا لايجتهد العلماء في حل قضايا الأنسان المسلم المعاصر ، وفي كل يوم نرى مشكلة جديدة تجابهه ؟ ولماذا لايعملون عمل أبي حنيفة في مناقشة المشاكل وطرح الحلول المناسبة لأنسان هذا العصر في حدود الكتاب والسنة ، وهي حدود لانهاية لها ؟

ومن المؤسف جداً أن باب الأجتهاد قد أُغلق كما يقول الأستاذ عبدالواهاب خلاّف في كتابه : علم أصول الفقه وخلاصة التشريع الأسلامي

---

(١٥) ابراهيم ـ هو ابراهيم النخعي من رجال الحديث . الشعبي ـ هو أحد شيوخ التابعين ، محدث ومؤرخ . الحسن ـ هو الحسن البصري المشهور . ابن سيرين ـ أحد الطبقة الثانية من رواة الحديث وكان حجة في تعبير الرؤيا . سعيد بن المسيب ـ كان من خيار التابعين وكان من أفقه أهل الحجاز وقد جمع بين الحديث والفقه والنسك .

[16][منذ منتصف القرن الرابع الهجري بالتقريب ، حين طرأت على المسلمين عدة عوامل سياسية وعقلية وخلقية وأجتماعية أثرت في كل مظهر من مظاهر نهوضهم ، وأحالت نشاطهم التشريعي الى فتور ، ووقفت حركة الأجتهاد والتقنين ، وأماتت في العلماء روح الأستقلال الفكري ، فلم يَرِدوا المعين الذي لاينضب ماؤه ، وهو القرآن والسنة ، بل راضوا أنفسهم على التقليد ، ورضوا أن يكونوا عالة على فقه الأئمة السابقين أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأقرانهم ، وحصروا عقولهم في دوائر محدودة من فروع مذاهب هؤلاء الأئمة وأصولها] ثم يعدد المؤلف العوامل التي الى توقف حركة الأجتهاد في نظره •

والأمام الفقيه المحدث المجتهد محمد بن علي الشوكاني[17] ١٢٥٠هـ ١٨٣٤م في كتابه (القول المفيد في أدلة الأجتهاد والتقليد) يحمل حملة شعواء على المقلدين ، ويروي عن الأئمة الأربعة : أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل ، كرههم التقليد اذا ما وجد الباحث في الكتاب والسنة مايخالف آراءهم ، ونقل عن أبي حنيفة وتلميذه أبي يوسف[18] [أنهما قالا : لايحل لأحد أن يقول بقولنا حتى يعلم من أين قلناه ، وهذا تصريح بمنع التقليد •••• ويقول الشوكاني : وقد تواترت الرواية عن الأمام مالك : أنه قال له هارون الرشيد : انه يريد أن يحمل الناس على مذهبه فنهاه عن ذلك] •

(١٦) علم أصول الفقه ص٣٢٣

(١٧) الامام محمد علي الشوكاني ـ نشأ في صنعاء اليمن • كان أيام قراءته على الشيوخ واقرانه تلاميذه يفتي أهل مدينة صنعاء ، له مايزيد على مائه مؤلف منها : رشاد الفحول الى تحقيق الحق من علم الاصول وكتاب نيل الاوطار •

(١٨) القول المفيد ص١٧

ويقول الأمام الشوكاني عن الأمام أحمد بن حنبل ، وهو المعروف بقوة ايمانه وصلابته [وأما الأمام أحمد بن حنبل فالنصوص عنه في منع التقليد كثيرة ... قال أبو داود [20] : قال لي أحمد بن حنبل : لاتقلدني ولامالكاً ولا الشافعي ولا الأوْزاعي [21] ولا الثّوري [22] وخذْ من حيث أخذوا ، وقال : من قلة فقه الرجل أن يقلّد دينه الرجال . قال ابن القيِّم [23] : ولأجل هذا لم يؤلف الأمام أحمد كتاباً في الفقه ، وانما دوّن أصحابه مذهبه من أقواله وأفعاله وأجوبته وغير ذلك]

ثم يستمر الأمام الشوكاني في حديثه ويقول [وبالجملة[24] فنصوص أئمة المذاهب الأربعة في المنع من التقليد وفي تقديم النص على آرائهم وآراء غيرهم لاتخفى على عارف من أتباعهم وغيرهم .

وألا نصوص سائر الأئمة المتبوعين على ذلك والأئمة من أهل البيت عليهم السلام فهي موجودة في كتبهم معروفة ، قد نقلها العارفون بمذاهبهم

---

(١٩) القول المفيد ص٢٧

(٢٠) أبو داؤد سليمان السجستاني تلميذ أحمد بن حنبل له مجموعة الاحاديث المعروفة (بكتاب السنن) توفى في البصرة سنة ٨٨٨م

(٢١) الاوزاعي ـ عبدالرحمن الاوزاعي من أئمة الفقهاء في الاسلام ، له مذهب معروف وكان جريئا في قول الحق ، ولد في بعلبك في لبنان وتوفي ببيروت سنة ٧٧٤ م

(٢٢) الثوري ـ سفيان الثوري من أئمة المحدثين وعلماء الكلام الصوفيين في العراق . من مؤلفاته : الجامع الكبير والجامع الصغير والفرائض . توفي سنة ٧٧٨م

(٢٣) هو شمس الدين بن قيم الجوزية أحد تلاميذ ابن تيمية ، من مؤلفاته كتاب (الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية) ومؤلفات في التصوف . توفى سنة ٧٥١ هـ .

(٢٤) القول المفيد ص٢٧

عنهم ... ناهيك بالأمام الهادي يحي بن الحسين ، فانه الأمام الذي صار أهل الديار اليمنية مقلدين له متبعين لمذهبه في عصره وهو آخر المائة الثالثة الى الان ، مع أنه قد أشتهر عند أتباعه والمطلعين على مذهبه أنه صرّح تصريحاً لايبقي عنده شك ولاشبهة بمنع التقليد له . وهذه مقالة مشهورة في الديار اليمنية يعلمها مقلدوة فضلاً عن غيرهم ، ولكنهم قلّدوه شاء أم أبى .... وقد كان أتباع هذا الأمام في العصور السابقة وكذلك أتباع الأمام الأعظم زيد بن علي ، فيهم انصاف لاسيما في فتح باب الأجتهاد وتسويغ دائرة التقليد وعدم قصور الجواز على امام معين كما يعرف ذلك من مؤلفاتهم] .

ويحدثنا الأمام الشوكاني عن هؤلاء المقلدين الذين جاءوا بعد الأئمة وقد ضاقت عقولهم وتمسكوا بمبادئهم وأنقسموا الى طوائف وتخاصموا فيما بينهم [(٢٥) وحسبت كل طائفة أن الحق مقصور على ماقاله امامها ، وما عداه باطل ، ثم وقعت في قلوبهم العداوة والبغضاء حتى انك تجد من العداوة بين أهل المذاهب المختلفة مالم تجده بين أهل الملل المختلفة ...

وأما (٢٦) العلماء المحققون المجتهدون فالغالب على أكثرهم الخمول، لأنه لما كثر التفاوت بينهم وبين أهل الجهل كانوا متقاعدين ... فاذا تكلم عالم من علماء الأجتهاد ـ والحال هذه ـ بشيء يخالف مايعتقده المُقَلّدة قاموا عليه قومة جاهلية ، ووافقهم على ذلك أهل الدنيا وأرباب السلطان فاذا قدروا على الاضرار به في بدنه وما له فعلوا ذلك ، وهم بفعلهم

---

(٢٥) القول المفيد ص١٥

(٢٦) المصدر السابق ص٢١

مشكورون عند أبناء جنسهم من العامة والمقلّدة ، لأنهم قاموا بنصُرة الدين بزعمهم ، وذبّوا عن الأئمة المتبوعين وعن مذاهبهم التي اعتقدها أتباعهم ، فيكون لهم بهذه الأفعال التي هي الجهل والضلال ، من الجاه والرفعة عند أبناء جنسهم مالم يكن في حساب]

هذا ما حدث في الماضي فجمدت العقول وأبتعدت عن الحركة والتفكير والأجتهاد ، وقد تعمدتُ ذكر كل هذا لئلا نبقى على ماكناعليه من جمود وتقليد ، ولكي لانعيد تلك المعارك والاحداث ونقوم قومة جاهلية على كل مجتهد يفكر ويعمل في حدود كتاب الله وسنة رسوله • والدنيا قد تغيرت وتطورت وجدّت أحداث ووقائع وأمور كثيرة جداً لم ترَ البشرية مثلها في كل عصورها •

وعلى علماء المسلمين أن يوحدوا صفوفهم ويوسعوا صدورهم ويحركوا عقولهم ويجتهدوا في حل مشاكل الأنسان المسلم لأنقاذه من ألفوضى والتخلف الذي عاناه في الماضي ولايزال يعانيه •• وبدون هذا فسيسير في كل درب ويتبع كل ناعق وتيارات الفوضى والألحاد والسير وراء ألمتع والشهوات قوية شديدة ستكتسح كل شيء أمامها • والفراغ الروحي من أخطر الأسباب في شقاء الأنسان وفوضى المجتمع وأنحطاطه ، والعلماء ورثة الأنبياء •

ومن هذه الأمور التي تجب العناية بها ودراستها ووضع قواعدها وأصولها والتأمل من نتائجها هي ترجمة القرآن الكريم • ورجال الدين من علماء المسلمين كثيرون بحمد الله وفيهم من تفتحت عقولهم وقلوبهم وأحسوا بما يكابده الأنسان المسلم في هذا العصر وعليهم تقع مسؤولية

الدراسة والعمل في حدود كتاب الله وسنة رسوله • والقرآن هو الدستور الذي يجب أن يكون في كل عقل وقلب ، وفي كل يد وعلى كل لسان •

وعلينا أن نذكّر علماء المسلمين وكل حريص على الأسلام والأنسان المسلم ، بحالة بعض المسلمين ومدى فهمهم الأسلام عندما يبتعدون عن القرآن ، ويتيهون في بحور الفوضى والتخلف •

وهذان نموذجان من تلك الحالات هما : المسلمون الزنوج في أمريكا والمسلمون الزنوج في قارة أفريقيا السوداء وعددهم في هذه القارة أربعون مليوناً أو يزيد •

– ٨ –

المسلمون الزنوج في أمريكا

أما الزنوج المسلمون في أمريكا ، فأنا ألخص هنا ما ذكره كاتب زنجي شهير هو [(٢٧) لويس • ي • لوماكس Louis. E. Lemax في كتابه (ثورة الزنوج) عن المسلمين الزنوج في أمريكا ، وهو من أعلم الناس بهم • فهو يقول [(٢٨) ان من علائم ثورة الزنجي على ما يلاقيه في المجتمع الأمريكي من اضطهاد ، هو ظهور شخصية (الحاج محمد) ــ أو السيد محمد كما يدعونه ــ وأتباعه الذين يُعرفون بأسم (أمة الأسلام) والسيد محمد زنجي أمريكي تجاوز الستين من عمره ،

---

(٢٧) لويس•ي•لوماكس : زنجي تخرج في جامعة جورجيا وعمل استاذاً مساعداً للفلسفة في كلية جورجيا الحكومية ، ثم انتقل الى نيويورك وأصبح أول زنجي يظهر على شاشة التلفزيون ، وصار يكتب المقالات في الجرائد والمجلات ، وله عدة مؤلفات •

(٢٨) ثورة الزنوج ص١٨٠ ومابعدها •

وكان قِسّيساً في احدى كنائس (المَعْمدانيين) [٢٩] اسمه (ايليا پول).

وأمر السيد محمد مدهش للغاية ، لأنه لاشيء في مظهره يستلفت النظر ، وهو متوسط القامة يُتَأتِيء بكلامه ويلفظ السين (ثاء) ومن الصعب أن يصدق المرء أنه هو الروح الكامنة وراء هذه الديانة التي تدرس في خمسين مدرسة من مدارس الولايات المتحدة . ومع ذلك فهو عندما يتكلم يجلس المستمعون مسحورين مدة أربع أو خمس ساعات يصغون الى تعاليمه المدهشة .

وعلى من يريد أن يدرس طبيعة المسلمين السود ، ان يحضر اجتماعاتهم الدينية التي يخطب فيها السيد محمد . وهم منعزلون تماما عن سائر الأمريكيين ، ويسمون أنفسهم (أُمة) ليشيروا الى أنهم لايشكلون جزءاً من الأمة الأمريكية فنساؤهم يغطين رؤوسهن ويفضلن الثياب الطويلة الفضفاضة البيضاء أللون . ولهم مخازنهم وأسواقهم وحوانيتهم ومدارسهم الخاصة .

والسيد محمد يعلّم ، أن الأسلام هو دين الرجل الأسود ، وان الرجل الأسود هو الأنسان الصالح ، وهو يستند في بعض تعاليمه على العهد القديم (التوراة) وقصة الحية وآدم وحواء وجنة عدن ، وهو القائل : ان المعركة العظمى بين الخير والشّر قد بدأت ، وكثيراً مايستعمل كلمة الشياطين في حديثه .

---

(٢٩) المعمدانيون ـ أتباع المذهب البروتستانتي يقولون بأن المعمودية ـ وهي تغطيس المسيحي في الماء المقدس ليتخلص من الخطيئة ـ يجب أن تتم عندما يبلغ المسيحي سنا تمكنه من فهم معناها . أما الكاثوليك فهم يعمدون ـ بتشديد الميم ـ الاطفال قبل البلوغ.

وهو يرى أن الشعب الوحيد الذي وُلِد من الله هو أمة السود ألتي انحدر منها زنوج أمريكا ، وان الله والرجل الأسود واحد ، لذلك فكل السود مقدّسون • وهو يدعو الى تكوين دولة للزنوج منفصلة عن أمريكا ، ويواصل اتهاماته للناس البيض وللمسيحية ولزعماء الزنوج المسيحيين الذين يدعون الى الأندماج مع البيض •

ويشهد العاملون في حقل الأصلاح الأجتماعي للبيض والسود ، أن هؤلاء المسلمين صنعوا المعجزات في تقويم أخلاق الزنوج المجرمين وردّهم الى الصراط المستقيم • فهم يدخلون على المجرم ويقنعونه بأنه ضل عن جادة الصواب ومال الى الشر لأنه يئس من نفسه وخجل من لونه ،وقادته العقدة النفسية الى عمل الرجل الأبيض الشرير • ولايزالون حتى يصوّروا له أن السواد ميزة وبركة ، ولكي يحافظ على هذه البركة عليه أن يبتعد عن المنكرات ويعيش حياة فاضلة • وكنتيجة لهذه الدعوة :

١ ـ [٣٠] لاتستطيع أن تجد أبداً مسلماً قذر الثياب •

٢ ـ ولاتستطيع أن تشاهد مسلماً يشرب الخمرة •

٣ ـ ولاتستطيع أن تشاهد مسلماً يدخن •

٤ ـ ولاتستطيع أن تجد مسلماً يتعاطى المخدرات •

٥ ـ ولاتستطيع أن تجد مسلماً يرقص •

٦ ـ ولاتستطيع أن تشاهد امرأة مسلمة تسير مع غير مسلم •

٧ ـ ولاتستطيع ان تجد رجلاً مسلماً يعاشر امرأة غير زوجته •

٨ ـ ولاتسطيع ان تجد رجلاً مسلماً لايؤمّن دخلاً محترماً بعرق جبينه•

---

(٣٠) المؤلف نفسه وضع صيغة هذا التسلسل وهذه العبارات ليؤكد التركيز عليها •

٩ ـ ولاتستطيع أن تجد رجلاً مسلماً لاتدفعه مروءته لأغاثة امرأة تطلب نجـدة •

١٠ ـ انه من أندر النوادر أن يرجع أمرؤ الى الأجرام بعد أن يعتنـق الاسلام ، مع العلم أن ما لايقل عن ستمائة مجرم يعتنق ديانـة الاسلام سنوياً •

واتهامات السيد محمد للديانة المسيحية وضعت رجال الدين الزنوج المفكرين في موقف حرج ، وهم متفقون على أن السيد محمد هزّ المجتمع المسيحي الزنجي ، وعلى الأخص عندما اقتبس من السيد المسيح قولـه (من ثمارهم تعرفونهم) اذ رأوا أن المسيحيين البيض خيبوا آمال الزنوج بمعاملاتهم •

* * *

هذا ملخص ما قاله مؤلف كتاب (ثورة الزنوج) عن المسلميـن الزنوج • واسلام هؤلاء قشرة خفيفة يُخشى عليها اذا ما توفي زعيمهم السيد محمد ، فلو تشرّبوا بروح القرآن وقرأوه ودرسوه وفهموا ما فيه ، لأتوا بالعجائب في هذا المجتمع الظالم ، ولدامت هذه الدعوة وانتشرت بـين جميع الزنوج •

وقد علمنا التاريخ أن كثيراً من الحركات الأصلاحية تقوم بظهـور شخص في ظروف معينة ، فاذا ما ذهب الشخص أو زالت الظروف فـأن الحركة تموت أو تتشوه ويذهب أثرها ، وربما تنقلب حسناتها سيئات •

وهناك فرق كبير بين عقيدة سماوية تصلح لكل الناس وكل الظروف وقد عاشت عصورا طويلة ، وبين عقيدة شخص طارىء في ظروف طارئة •

وهذه ليست الحضارة التي وضع أسسها الأسلام في دستوره القرآن الكريم ولو كان القرآن بين أيديهم وفي عقولهم وقلوبهم لدامت هذه الحركة وتوسعت ولو ذهب كل زعمائها جيلا بعد جيل مادام الأساس ثابتاً قوياً يبني الناس عليه حياتهم وحضارتهم كما يريدون .

وقد أدرك المؤلف نفسه هذه الحقيقة ، فهو يقول في آخر حديثه عنهم [(٣١) وحركة المسلمين الزنوج نشأت كرد فعل لوضعية الزنوج في أمريكا اليوم ، وعوضاً عن أن يعملوا على تحسين الحال ضمن المجتمع الأمريكي كما فعلت المنظمات الأخرى ، فقد أداروا ظهورهم الى ذلك المجتمع وأغمضوا أعينهم عن وجوده كلياً ، وجعلوا هدفهم حَمْل الزنجي على الأعتزاز بزنجيته .

وأنا شخصيا ـ يقول المؤلف لا أشعر أن المسلمين الزنوج يشكلون خطراً اليوم على المجتمع الأمريكي ، لأن قوتهم تتبخّر بطريقة غير مؤذية لأنصرافها الى تعاليم تتركز على الأيمان والطقوس] .

— ٩ —

المسلمون الزنوج في القارة السوداء

أما الزنوج في قارة أفريقياالسوداء ـ ويعنون بالقارة السوداء : البلاد التي يسكنها الزنوج في أفريقيا ـ فيختلف حالهم عن الزنوج في أمريكا .

والأنسان الزنجي في هذه القارة عاش عصوراً طويلة جداً ، وهو يكافح الطبيعة وما فيها من متاعب ومصاعب وأخطار ، ويصارع من أجل حياته وبقائه ، وبجانب هذا كانت روحه تتطلع الى خالقها وتريد أن تهتدي

---

(٣١) ثورة الزنوج ص ١٩٥

اليه بشتى الوسائل التي تناسب عقول ومستوى فهم وأدراك كل قبيلة أو جماعـــــة •

وكان الرحالة والمستكشفون يصورون هذا الأنسان بصورة مرعبة ، ويتحدثون عن عاداته وسلوكه ومعتقداته واوثانه ، بأحاديث تثير العجب والأزدراء ، لذلك تشوهت صوره وسلوكه ومعتقداته في نظر الناس ، فهان أمره عليهم ، ولم يعتبروه انسانا مثلهم له كل صفات البشر ، فأصطادوه وباعوه وأستغلوه ، وتلوّثت أيدي بعض الدول بهذه التجارة الوضيعة ، الى أن أستيقظ ضمير الأنسان فكافح هذه التجارة الخاسرة ، وبذلك اطمأن الانسان الزنجي المظلوم وتنفس نسيم الحياة •

ولما جاء القرن التاسع عشر وبعده القرن العشرون وكثر المستكشفون والمبشرون والمستعمرون وتوسعت العلوم الأجتماعية ، وكثر الباحثون في علم الأجناس وعلم الأنسان ، أخذ هؤلاء العلماء يطوفون أرجاء هـــذه القارة : سهولها وجبالها وغاباتها وأدغالها ، ويتصلون بألقبائل ويدرسون لغاتهم وأديانهم ومعتقداتهم وسلوكهم وأخلاقهم وأحوالهم الأجتماعية الى غير ذلك• فوجدوا أن المجهول فيهذه القارة ليس أرضها وطبيعتها ومعادنها وحيوانها ونباتها ، لكن المجهول هو الأنسان الزنجي •

لذلك أخذوا يبحثون ويؤلفون الكتب العديدة في كل ناحية مـــن نواحي هذا الانسان وبخاصة الناحية الدينية ، لأنهم رأوا أن الدين هو القوة المحركة في حياة مجتمع الأنسان الزنجي ، لهذا ركزوا أبحاثهم فيه •

ويقول العالم (موريس دلافس) في كتابه [حضارات الزنوج فيأفريقيا]

: [[٣٢]انه ما من نظام يشاهَد بين قبائل أُفريقيا السوداء ، سواء أكـــان نظاماً اجتماعيا أم سياسياً أم اقتصادياً ، الاّ وهو يرتكز على فكرة دينية ، أو أن الدين هو حجر الزاوية فيه • تلك الشعوب التي ظُنّ أحياناً أنها مجردة عن الفكرة الدينية هي في الواقع من أشد شعوب الأرض تديّناً] •

هؤلاء العلماء عندما طافوا أرجاء القارة السوداء صادفوا في طريقهـــم المسلمين الزنوج ، لأن انتشار الأسلام سبقهم منذ القرن الثامن عشـــر • فأخذوا يدرسون الدين الأسلامي دراسة دقيقة : درسوا مذاهبه وطريقة انتشاره وعوامل هذا الأنتشار من الناحية الدينية والنفسية والأجتماعيـة والاقتصادية ، ودرسوا الطرق الصوفية ورجالها والقبائل الزنجية التـــي تنسب اليها والدول الاسلامية الزنجية التي ظهرت ثم زالت ، وألّفوا كتباً عديدة عن الاسلام والمسلمين في هذه القارة السوداء ، لأن الأسلام هـــو الخطر الوحيد الذي يهدد الأستعمار والتبشير بالمسيحية ، كمـا سيـرى القاريء فيحديثنا عنهم •

وصحيح أن هذه الدراسات أفادت المستعمرين والمبشرين وبعضـــض علماء الأجتماع لكنها في الوقت نفسه غيّرت حالة الزنوج ـ ومنهم الزنوج المسلمون ـ ورفعت مستواهم ، وحظيت القارة السوداء ببعض الاستقرار ، وحصل بعض شعوبها على حياة نيابية وأحزاب ساسية وحكومات مسؤولة ، فأسسوا فيها حضارة جديدة •

هذه الدراسات كلها قام بها العلماء المسيحيون والمبشرون ورجـــال السياسة خدمة للاستعمار • أما المسلمون فما زالوا بعيدين عن مثل هذه

---

(٣٢) الديانات في أفريقيا السوداء ص٩

الدراسات ، ولم نسمع عن عالم عربي أو مسلم غير عربي قام بدراسة تستوعب جزءاً منهذه القارة السوداء،وأعطانا تحليلا دقيقاً للانسان الزنجي المسلم كما فعله أولئك •

وأذا كان هناك رجال رحلوا الى بعض هذه الاقطار ووصفوها ، فليس هذا هو ماقام به علماء الأنسان وعلماء الأجتماع وغيرهم الذين درسوا نفسية الزنجي ومعتقداته وأحواله الأجتماعية وألفوا عنه الكتب حتى اصبحت (الدراسات الأفريقية شعبة هامة من شُعَب العلوم الأنسانية في هذا العصر) والمهم في حديثنا هو الأنسان الزنجي المسلم الذي يمثل الأكثرية الغالبة في هذه المجتمعات الزنجية الأسلامية • وأنا أعتمد فيما سأذكره عنه على كتاب [الديانات في أفريقيا السوداء] لمؤلفه الدكتور (هوبير ديشان الأستاذ في معهد الآجناس البشرية ومعهد الدراسات السياسية بجامعة باريس وهذا الأستاذ العالم نال شهادة الدكتوراه في الاداب وحصل على عدة شهادات عالية أخرى منها : ليسانس الحقوق ودبلوم اللغات الشرقية الحية • وفي عام ١٩٣٨ عين حاكما لمستعمرة الصومال الفرنسي ثم ساحل العاج ثم السنغال حتى سنة ١٩٥٠ ثم تخصص بدراسة علم الأجناس وأصبح أستاذاً فيه •

وهو في كتابه منصف كل الأنصاف ، دقيق في معلوماته ، بعيد كل البعد عن التعصب ـ كما سيرى القارىء ـ لايسخر ولايستخف بأية عقيدة يتحدث عنها ، بل يعتقد أن فيها سراً خفياً علينا أن ندرسه ، وقد اعتمد أحياناً على ماألفه غيره من العلماء والدارسين والساسة ، زيادة على مالديه من تجارب واختبارات كثيرة حصل عليها عندما حكم تلك البلاد • وهذه هي عقلية الأستاذ الجامعي والباحث العلمي الرصين •

وقد جعل كتابه [الديانات في أفريقيا السوداء] في قسمين :

الأول ــ عن العقائد الوثنية

والثاني ــ عن الديانات السماوية : الاسلام والمسيحية •

ففي ألقسم الأول يتحدث عن العقائد الوثنية عند الزنوج ، ويذكر معتقدات كثير من القبائل وعاداتهم والأنظمة الأجتماعية ، ونظرة الزنجي الى الطبيعة من حيوان ونبات ومعادن وأشياء أخرى ، وفيها العجائب والغرائب • ثم يتحدث عن عباداتهم ونظرتهم الى الأله الأعظم ، ووجود الله ونشأة الكون • والقاريء يخرج من كل هذا بحقيقة أن الأنسان مهما كان بدائياً فهو يؤمن بوجود الله ويتحدث عن نشأة ألكون من حيث يشعر أولا يشعر لان الروح تحاول دائما وأبداً أن تتصل بخالقها مهما كانت الوسائل

ويذكر المؤلف (٣٣) أن قبائل أعالي النيل تعتقد بأله سماوي خلّاق عظيم ، ينزّل الغيث ، ولايعرفون له صورة مادية ، لأنه لاشكل له ولا تدركه الأبصار وانما يدركونه بالعقل • فهو روح عالمي ، هو مصدر الخير والشر على السواء • واذا التبس عليهم معرفة شيء ، فذلك الشيء اله في نظرهم • ودعواتهم موجهة في الغالب الى وسطائه من الآلهة الصغرى ، فاذا عجز هؤلاء عن اجابة دعواتهم ، انصرفوا عنه الى الاله الأعظم •• والآلهة الصغرى جماعة موكلة من قبل الأله الأعظم تتصرف في شؤون البسيطة •

ثم يتحدث المؤلف : عن اعتقاد الزنوج بالجن وعن طرق عبادة كثير من القبائل ، وعن فكرة الكون وأساطير نشأة الخليقة وتعددها وتعقيدها عندهم • ثم يذكر طريقة تلقين الأسرار الكهنوتية للشباب والشابات وختان

---

(٣٣) الديانات في القارة السوداء ص٤٧

البنين والبنات والسحر والسحرة ، والطب والأطباء والحفلات التـــــي يقيمونها والجمعيات السرية وأعمالها ومنها جمعيات ارهابية •

ويختم المؤلف حديثه عن الزنوج بقوله : غير أن الذي استفــــاد استفادة حقيقة من هذا ألتفكّك للديانات القديمة هما : الدينـــان العالميان القائمان على الوحي السماوي أعني الأسلام والمسيحية •

وأخذ هذا القسم الأول عن عقائد الزنوج ثلثي الكتاب • والقارىءلهذا ألقسم يجد نفسه في رحلة رائعة يطلع فيها على العجائب والغرائب مـــن هذا ألمخلوق : الأنسان الزنجي ، مع الدقة في المعلومات والتفسير والتركيز الذي لايملّ منه القارىء • وكل هذا بفضل سعة أفق المؤلف وأسلـــوب بحثه العلمي والظروف التي تهيأت له كحاكم في هذه المنطقة ليطلع علـــى أسرار كل نواحي حياة الزنوج على اختلاف قبائلهم وعقائدهم • ومـــن النادر أن تتهيأ هذه الظروف لمثل هذا العالم •

وقد ذكرت هذه اللمحة من هذا الكتاب عن معتقدات الزنوج لعلاقة بعضها بعقيدة الزنوج بعد اسلامهم ، وليطلع القارىء على عقلية الأنســان الزنجي واتجاهاته ، وعلى مدى الجهود والبحوث العلمية في دراسة هذا الأنسان للتغلغل في أعماقه وتغيير أطواره وتوجيهه الجهة التي يريدونها وبذلك استطاعوا عندما جاء القرن العشرون أن يستعمروا القارة الأفريقية جميعها بدون استثناء : الزنوج وغير الزنوج ومنهم العرب •

أما نحن المسلمين ، فلم نقم بأي جهد ، وليس لدينا تلك الدراسات والصبر على البحث العلمي ، ولانمتلك الأساليب التي يستخدمها العلماء في مثل هذه البحوث الصعبة المعقدة • بل مَثلُ المبشرين بالاسلام والداعين اليه مَثل من يأتي بشخص فينزع عنه ثوبه ويلبسه ثوباً آخر بغير قياس

ولاحساب لطول الثوب أو قصره أو عرضه أو سعة أكمامه مادام الثوب يستر الجسم وعلى الشخص أن يكيف نفسه فيه •

لذلك فنحن مضطرون الى الأعتماد على المصادر الأجنبية ـ ولكن بحذر ويقظة ـ لأننا لم نجد مصدراً اسلامياً نعتمد عليه في دراسة هذه الشعوب الزنجية المسلمة •

ـ ١٠ ـ

والمؤلف في حديثه عن انتشار الأسلام يقسم موضوعه الى قسمين •

١ ـ الاسلام في غرب أفريقيا السوداء

٢ ـ الاسلام في شرق السودان •

لأن لكل منطقة ظروفها وخصائصها وطبيعتها الجغرافية وحالة سكانها ومستوى صلاتهم بما يجاورهم من الأقوام • وهو يركز حديثه على غرب أفريقيا لأن معظمه مستعمرات فرنسية وهو من أعلم الناس بها •

ففي غرب أفريقيا السوداء نجد أن المنطقة المجاورة للساحل أراض خصبة تغطيها المراعي الصالحة لرعي الماشية وحياة البدو • وقد ارتاد تلك المراعي في القرن الحادي عشر قبائل (لمتونه) من البربر ، وبقوا فيها مدة الى أن نزل بينهم رجل صالح من البربر هو (عبدالله بن ياسين) (٣٤) وأقام في جزيرة صغيرة قريبة من ساحل (السنغال) حيث أسس له

---

(٣٤) في مجلة (العربي) الكويتية عدد كانون الاول ١٩٨١ مقال لكاتب مغربي بعنوان (عبدالله بن ياسين موحد الصحراء في المغرب الاقصى) يذكر فيه أثر هذا المصلح في وضع أسس دولة المرابطين •

(رِباطاً) ـ زاوية دينية ـ وعُرف أتباعه بـ (المُرابطين) ٠

وقد أعتنقت قبائل (لمتونه) الأسلام على يديه وعاهدوه على الجهاد في سبيل الاسلام ، فأتجه [٣٥] بطن منهم الى مراكش واتجه آخرون الى غزو البلاد المجاورة وهي مملكة (غانه) الزنجية الوثنية ـ بين السنغال والنيجر ـ فأستولوا عليها سنة ١٧٠٦ م ٠

ثم يعدد المؤلف القبائل الوثنية التي اعتنقت الاسلام ، والدول الاسلامية الزنجية التي ظهرت ثم زالت ، والشخصيات التي برزت ، والحروب التي قامت بين المسلمين والوثنيين ، ويقول :

[ومهما [٣٦] يكن من شيء فان انتشار دعوة الأسلام في غالب الظروف لم تقم على القسر ، وانما قامت على الأقناع الذي كان يقوم به دُعاة متفرقون من (المرابطين) لايملكون حولاً ولاقوة الا ايمانهم العميق بدينهم ٠٠ وقد يسّر انتشار الاسلام أمر آخر هو : أنه دين فطرة طبيعية ، سهل المتناول ، لا لَبْسَ ولا تعقيد في مبادئه ، سهل التكييف والتطبيق على الظروف ٠ وان الأنتساب اليه أيسر وأيسر ، اذ لايُتطلب من الشخص اعلان اسلامه سوى النطق بالشهادتين حتى يصبح في عداد المسلمين ٠ ولم يفرض الاسلام على الزنوج أن يغيروا من نظام معيشتهم او تفكيرهم الديني ، لذلك فان كثيراً من القبائل الزنجية التي اعتنقت الأسلام احتفظت الى جانبه بآثار كثيرة من عقائدها وعاداتها هذا الى أن عقيدة التوحيد التي جاء بها الاسلام لم تكن غريبة عليهم ، بل كانت تتمشى مع عقيدتهم القديمة في الأعتقاد بوجود اله خالق ٠

---

(٣٥) بطن القبيلة ـ جزء منها ٠

(٣٦) الديانات في أفريقيا السوداء ص١٢٨

وقد حبّب الاسلام اليهم مظاهره البعيدة عن التكلُف مثل : الثـــوب الفضفاض والمَسبحة ـ السُبْحَة ـ والكتابة العربية ، والوقار الدينـي وشعائر الصلاة ، مما يُضفي على المسلم مكانة مرموقة وجاذبية ساحـــرة فالذي يدخل الأسلام ولو في الظاهر يشعر بانه أصبح ذا شخصيه محترمة وأنه قد ازداد من القوة والحيوية]

ثم يذكر المؤلف أن ساسة الأستعمار استعانوا برجال الدين المسلمين في أول الأمر ثم خشوا من اتساع نشر الأسلام لذلك رجعوا الى القبائل الزنجية بعد أن غيروا طريقتهم في معاملة الزنوج ونظرتهم اليهم بفضـــل دراسات علماء الأجتماع وعلماء الأنسان والأجناس •

وكان من أهم العوامل في نشر المسيحية هو موقف التقدير الذي وقفه المبشرون اخيراً ازاء ألعوائد الوثنية • اذ كان يعتقد بعض المبشرين فـي ألزمن السابق [أن المدنية الغربية والدين المسيحي وحـــدة لاتتجزّأ ، ولذلك أطلقوا عليها تسمية مفردة هي المدنية المسيحية] لذلك لم يكونوا ينظرون الى الديانات الوثنية الزنجية الا على انها خليط مـن العـــادات والخرافات الشيطانية التي تقشعر لها الأبدان ، فأحتقروها وحاولوا اقتلاعها ومحوها من نفوس الزنوج لكي يشيدوا في مكانها الصرح الثقافي للمدنية المسيحية ، ولهذا فشل المبشرون في أول أمرهم ، ولكنهم بفضل جهـــود العلماء توجهوا الى فكرة جديدة تناقض الفكرة القديمة ، [(٣٧) وهي فكرة تقوم على أن لكل حضارة قيمتها الخاصة بها ، ولهذا كان من واجـــب المسيحية أن لاتعمل على محوها ، وانما يجب أن تعمل على التغلغل فيها

---

(٣٧) المصدر السابق ص١٧٢

بدراستها حتى تُستغَلّ بذورها الصالحة • وذلك بتفهّم نفسية الزنوج وجعل عاداتهم القديمة عادات مسيحية] •

* * *

ويتحدث المؤلف عن المناطق الأسلامية في الوقت الحاضر والفـــرق الأسلامية المنتشرة ، ويرى أن الفضل الأكبر في نشر الأسلام بين قبائـل الزنوج منذ القرن الثامن عشر ، يرجع الى نشاط الدعاة من أرباب الطرق الصوفيـــة •

ويعلل ذلك بقوله [(٣٨) وقد وجد الزنوج في الأسلام الطمأنينـــة بفضل نظامه الأجتماعي ، وما يتمتعون في ظله من السهولة في أسفارهـــم للتجارة ، كما أنه لايحملهم من الشعائر الدينية الا أداء الفرائض اليسيرة• ثم انهم وجدوا في شيخ الطريقة اماماً مزوداً بقوى علوية ، وفي حلقـــات الذِكر تجلّياً وتسامياً روحياً • كما أنه أشبع نزعتهم الطائفية التي تبعث في نفوسهم في وقت واحد طمأنينة وحمية ، غير أن التعصب لمذهب أو طريقة كان سبباً في مشاكل خطيرة ، تحولت حيناً الى حروب طاحنة بينهم]

وأقدم الطرق الصوفية هما الطريقة القادرية وتليها الطريقة التيجانية • والطريقة القادرية نشأت في العراق في القرن الثاني عشر الميلادي ، أسسها أشهر الأولياء (٣٩) (سيدي عبدالقادر الجيلاني) ـ ونحن العراقيين نقول :

---

(٣٨) المصدر السابق ص ١٣٤

(٣٩) عبدالقادر الجيلاني ـ احد اقطاب المتصوفة • ولد في جيلان وهي منطقة في غربي ايران بين جبال البرز وبحر قزوين • سمع الحديث وتفقه على علماء عصره واشتغل بالوعظ ، ولازم الخلوة والمجاهدة والسياحة ، تنسب اليه الطريقة القادرية ولها فروع في اليمـــن والصومال والهند وتركيا ومصر والمغرب والسودان توفي في بغداد سنة ١١٦٦ م

الكيلاني فتلفظ الجيم جيماً مصرية بين القاف والكاف ـ وهم يتعبدون على مذهب الأمام مالك ولهم أدعية وحلقات ذكر جماعية ، ولهم المسبحة الكاملة ذات المائة حبّة ، ويستغرق تعبدهم ساعات كثيرة في اليوم •

ويشتهر من أتباع هذه الطريقة في أفريقيا السوداء شعبة (قادرية كونتا Kounta ولها أتباع في جنوب مراكش وكذلك طريقة (المُريدين) التي تكثر في السنغال وهي شعبة من القادرية كونتا •

وطريقة المريدين أسسها رجل يدعى [(٤٠) أما دو بامبا Bamba وأمادو يعني (محمد) بلغتهم ، ولايزال قبره يزار الى اليوم في مدينة (طوبة) وأسرته على رأس هذه الطريقة • وهنا نرى الناس في أدنى حدود الأسلام ـ كما يقول المؤلف ـ بل ان كثيراً منهم خرج عن حدوده ، أذ يقدسون أمادو بامبا تقديساً يقرب من التأليه •

أما الطريقة التيجانية فقد نشأت في شمال أفريقيا في القرن الثامن عشر أسسها (سيدي أحمد التيجاني (٤١)) المدفون في (فاس) وتميز هذه

---

(٤٠) يقول المؤلف ان أمادو هو من قبيلة الاولوف • وقد اضطهدته الادارة الفرنسية ونفته عدة مرات لاشتغاله في السياسة، ومنذ ١٩١٢ قصر نشاطه على الامور الدينية • والطريقة المريدية هي تعاليم اسلامية تتسم بعقلية قبيلة الاولوف وشعارها اتخاذ الزراعة عملا اساسيا وهي اشرف الاعمال • وقد نظموها على اساس جماعي تعاوني لكل فرد نصيب من العمل وغلة الارض ملك للشيخ يقسمها بين العاملين على قدر حاجاتهم والباقي لاعمال الطائفه •
لذلك فالروءساء يتمتعون بالبذخ والترف والشعب في حالة خضوع وبؤس شديد

(٤١) هو ابو العباس احمد التيجاني ـ او التجاني ـ ولد في جنوب الجزائر وهو صوفي انتشرت طريقته في افريقيا الشمالية ومناطق افريقية الفرنسية توفي في فاس ودفن فيها سنة ١٨١٥ م

الطريقة ـ كما يقول المؤلف بشدة معاداتها للوثنية ومقاومتها للطرق الصوفية الأخرى • وقد انتشرت هذه الطريقة انتشاراً واسعاً ، لأنها لاتتطلب من مُريدها وقتاً طويلاً ولا مجهوداً فكرياً ، وتفرعت عنها في السودان شعبة [الحَمالة]

وقد ظهرت طريقة الحمالة في مدينة (نيورو) من بلاد الساحل السوداني • أسسها الشيخ ([٤٢] حما الله) واليه نُسبت ، وأصله من مسلمي البربر • ويقول المؤلف : هنا نجد الأسلام يتضاءل الى أدنى حدوده اذ نجد أن الحمالة يؤدون صلاتهم متجهين الى مدينة (نيورو) التي أقام فيها حما الله ، لا الى مكة كسائر المسلمين ، وهم يغرقون في تقديس الشيخ حما الله الى حد الألحاد • ومن أصول هذه الطريقة أن يذكر اسم الله احدى عشرة مرة فقط في المسبحة ، لذلك يفصل كثير من أتباعها الأحدى عشرة حبة الأولى بكرة من الزجاج • وقد دأب أتباع هذه الطريقة على وسم جباههم وأيديهم وأظافرهم بالوشم الذي كان يسم به الشيخ ماشيته • ويتغنون في أذكارهم ويرفعون بها أصواتهم في جَلَبة وصراخ •

- ١١ -

لكن الفضل في نشر الدعوة الأسلامية في أفريقيا الغربية يرجع الى الجهود الموفقة التي بذلها دعاة الأسلام من (المرابطين المغاربة) ـ كما

---

(٤٢) بدأ حما الله دعوته بنفسه فالتف حوله جماعة كانت صناعتهم في الماضي اقتناص الرقيق ولما بارت تلك التجارة تحولوا الى التقاتل فيما بينهم وغزو البلاد المجاورة فالقت الادارة الفرنسية على حما الله ونفته الى فرنسا وتوفي فيها سنة ١٩٤٢ •

يقول المؤلف ـ وأغلبهم من أتباع الطريقة القادرية ، وبعضهم من أتباع التيجانية • وقد أشتهر نفر من المرابطين بالتضلّع في الشريعة الأسلامية •

والمؤلف يعترف بصراحة بأن السلطات الفرنسية كانت تراقب هذه الطرق الصوفية وتوجهها أحيانا الجهة التي تريدها ، وتقضي على الخطرين من المشتغلين بالسياسة ، وتسهل أمور بعضهم • والعلماء يقومون بالدراسات العديدة عن الأسلام ومذاهبه وطرقه ويقدمونها الى السلطات الأستعمارية عن طريق الكتب التي يؤلفونها ليسيروا على ضوئها •

ومن هذه الدراسات ما قام به العالم الفرنسي (مارتي Marty وقد وضع عدة مؤلفات عن المسلمين في أفريقيا ألفرنسية الغربيةوهو يرى: [(٤٣) أن ثوب الأسلام على الرغم من بساطته وسهولته لم يكن مصنوعاً على قَدّ الزنوج ، فأعاد هؤلاء تفصيله على حسب قامتهم ، وأتخذوا منه زيّاً يلائم مزاجهم ، وقد عمل على تحوير شكله عاملان ، هما : البيئة الزراعية والعقلية الوثنية ••

وقد رسم هذا العالم (مارتي) وغيره من الباحثين صورة المسلم العادي في أفريقيا الفرنسية الغربية بقولهم : ان اعتقاد المسلم بالله يتمشى مع عقيدتهم الوثنية الأولى وهي : انه يوجد خالق عظيم للوجود ، ينعم بالقوى الحيوية على جميع مخلوقاته ، وخاصة مشايخ الطريقة التي ينتمي اليها وهم (المرابطون) •

وأما النبي محمد أو (أمادو او دودو فليس في ذهن المسلم الافريقي صورة واضحة عنه ، وانما يعتبره صانعاً للمعجزات ، يقوم بدور الآلهة

---

(٤٣) المصدر السابق ص ١٤٢

الصغرى في الوثنية ، وهو الواسطة بين الله والناس ، وقد حلّت عقيدة الجن عند المسلم محل عقيدة الأرواح الخفية التي تعمر الأدغال • كما أن اعتقاده بالأرواح الحامية لكل أسرة وبارواح الموتى الأسلاف الذين يرعون الأحياء ، وتقام لهم بعض الشعائر ، كل هذا مازال باقيا على حاله وأما فكرة الثواب والعقاب في الآخرة فجديدة عليه ، والأعتقاد به أقل انتشاراً • والمسلم هناك يهتم اهتماماً شديداً بالشعوذة وبالشعائر الدينية الظاهرة ، وتحاشي الأطعمة المحرمة والنجاسات أكثر مما يهتم بالنيات والأفعال •

ويحرص المسلم الزنجي على أن يؤدي فروض الصلاة في مظاهرها مع مراعاة الدقة في تأديتها ، من استقبال وركوع وسجود ، ويرى أن صلاته لاتكون صحيحةالا اذا انتهى منها وفي جبهته أثر التراب من السجود وهناك المساجد الجامعة والى جانبها زوايا من أكواخ القش أو مصليات صغيرة •

ويراعي المسلم تأدية فريضة الصوم بدقة تامة وخاصة في أوائل شهر الصوم ، ولكنهم لايمتنعون عن التدخين ولا عن مباشرة النساء • وتُعطى الصدقة والزكاة لفقراء المرابطين • ويحتفل المسلمون بكل أعيادهم احتفالاً كله بهجة وتسلية • وأما الحج الى مكة فنادر ، وقد تُيسّره الأدارة الفرنسية لمن يرغب من الأثرياء • ولايزال بعض الفقراء يؤدي فريضة الحج سيراً على الأقدام • ويحج كثيرون الى قبور الصالحين ومزاراتهم في نواحيهم كمزار (طوبه) لطائفة المريدين •

ويقول المؤلف [:[٤٤] من المعروف أن الأسلام ليس فيه (كنهوت)

(٤٤) المصدر السابق ص ١٤٥

غير أنه يوجد (أولياء) وهم أقطاب يحف بهم تبجيل أتباعهم من الأتقياء المؤمنين في شمال أفريقيا ، أما في أفريقيا السوداء فنجد من وراء كبار (المرابطين المثقفين) من مشايخ الطرق ، طائفة كبيرة من المتصوفة من الدرجة الثانية ، جمهرتهم من الجهّال ، وقد فرضوا أنفسهم على الناس بأسم الدين أو مزاولة السحر ، ولهذا بقي السحر الوثني القديم وعاش•

ونافس هؤلاء المتصوفة الكهنة المتطببين من الوثنيين في صناعتهم ، فهم يصنعون ويبيعون التعاويذ وهي تمائم (أُحْجِيّة) من الجلد بداخلها آيات قرآنية غالباً ، وهم يستحضرون الجن بتلاوة العزائم ، وبهذه الوسائل انحدر الأسلام الى الوثنية ، وهكذا حلّ المرابط محل الكاهن والساحر •

والعجيب أنه كلما تضاءلت الوثنية في ناحية من النواحي أمعن المتصوف في الأدعاء بأتيان الخوارق ، وبخاصة اذا كان هو في بلد يمثّل طريقة من الطرق وهو (خليفتها) ••• وهكذا حلت جماعة الطرق الدينية محل الجمعيات السرية الوثنية ، وأصبح شيخ الطريقة يتمتع في نظرهم بالتقديس لأن الله أرسله هادياً ••• وفي اعتقاد العامة أن طاعته والخضوع له وتقديم النذور اليه ضمان للنجاة من النار •]

* * *

[غير (٤٥) أن كبار مشايخ الطرق القديمة وأفذاذ علمائهم المعروفين بالتضلّع في الدين الحنيف لايُقِرّون أمثال هذه الاعتقادات ولايَدّعون لأنفسهم كرامات أو خوارق • وهم على فضلهم وسعة علمهم لاتعدو

(٤٥) المصدر السابق ص ١٤٦

علاقتهم بمريديهم علاقة الأستاذ بتلاميذة • وتعتبرهم الخاصة والمستنيرون مربين روحيين ، يوجهون النفوس ويُبصّرون الناس بأحوال القلوب • وقد عُرف من بينهم أولياء حقيقيون ، ولكن العامة تنظر اليهم نظر تقديس زَعْماً منهم أنهم حماة الناس في الدنيا وشفعاؤهم عند الله في الآخرة •

ومع ذلك ـ كما يقول المؤلف ـ فان الشريعة الأسلامية تتغلغل شيئاً فشيئاً في المجتمع القبلي بفضل الأحكام الشرعية التي يصدرها رجال القضاء الأسلامي في تلك البلاد •

ويقتصر تعليم العربية في تلك الأنحاء على مكاتب تحفيظ القرآن ، حيث يقضي الطفل شطراً كبيراً من حياته في استظهار ألسور بلغة لايفقهها وأما المدارس فيدرس فيها منهج ديني أعلى من منهج الكتاتيب وخريجوها أرقى • ان هذاالطابع لايخص أفريقيا السوداء ، ولكن عقبة اللغة العربية تضاعف مصاعب التعليم] •

هذا هو الأنسان المسلم الزنجي الذي يمثّل الأكثرية الغالبة في المجتمع ألزنجي الاسلامي ـ كما يصفه المؤلف ـ يحمل من الأسلام أسمه ومظهره وهو باق على بعض معتقداته الوثنية ، ويعبث به بعض الجهلة من أرباب الطرق الصوفية ، وهو بعيد عن القرآن الكريم دستور الأسلام والمسلمين كل البعد ، ولايفهم منه شيئا ولايستطيع قراءته أو فهم معناه فكيف نطلب اليه ايمانا عميقا وفكرا وعلماً أوعملا وحضارة ، وكل هذا لم يعلمه اياه أحد ولم يوجهه اليه انسان ، وهو أُمـّي لايدرك من الدنيا شيئاً •

وما أخطر هذه الطرق الصوفية اذا ماتولاّها الجهلة والعابثون من بني

البشر فضللّوا الناس وأستغلوهم ونشروا بينهم كل مالايقبله عقل ولم يأت به الأسلام ، ووجهوهم الى غير الطريق الذي أراده الله وسعى اليه رسوله •

[والتصوف يبدأ بتطهير النفس من الأهواء والأقذار والنزعات ألمنحرفة ، بحيث يصبح الأنسان أهلاً للتجلّي وماالتجلي الاشعوريزيدمن الله والقرب منه ، وكلما قوي هذا الشعور اطرد رقي النفس حتى تحس بوجود الله في قرارها ، بل بأتحادها به اتحاداً كلياً] •

فأين كل هذا من الجاهل الأمي الذي لايفقه من حياته شيئاً ؟

هذه حالة معظم الزنوج المسلمين في غرب أفريقيا السوداء ، أما في السودان وما جاورها ، فتختلف الحالة هناك من مكان الى آخر تبعاً لأنتشار القبائل العربية وانتشار اللغة العربية ، وتقدّم القبيلة في الحضارة وصلتها بما يجاورها •

أما في الساحل الشرقي الانكليزي فالمنطقة الساحلية معظمها يدين بالأسلام وأشهر مراكزها [زنجبار] • وفي بقية أجزاء القارة الجنوبية لم ينتشر الاسلام فيها الا انتشاراً ضئيلا والمسلمون أقلية محدودة •

وعندما غزا محمد علي الكبير السودان وأسس مدينة الخرطوم سنة ١٨٢١ ، توغل بعض المبشرين المسلمين في القارة وكثرت البعثات الدينية ، ولما أستقل (المهدي) في السودان أرسل رسله لنشر الدعوة الأسلامية في البلاد الواقعة غرباً •

ويقول المؤلف عن هذه البعثات الأسلامية (٤٦)[ولا شك أن هذه

(٤٦) المصدر السابق ص ١٥٣

الظاهرة خطيرة ، تدل على مدى انتعاش الحركة التقدمية للأسلام بين الشعوب الزنجية ، وتنبيء بما سيكون لها من آثار بعيدة المدى في الخطط المرسومة لحكم المستعمرات خاصة والسياسة الدولية عامة] •

وهكذا ينبه المؤلف قومه الى خطورة الحركة الاسلامية الأصلاحية ، وينبه المسلمين الى مايحيطهم من رقابة والى المستقبل الذي ينتظرهم • لكن المسلمين لم ينتبهوا ولم يستيقظوا من غفلتهم ، بل انتبه المستعمرون الى خطورة ألأسلام فوقفوا في وجهه وحاولوا ألعبث به ، وبقي المسلمون متخلفين جداً ، وليس لهم من الأسلام الا الأسم ، وهم أبعد مايكونون عنه وعن دستوره القرآن الكريم •

— ١٢ —

أما انتشار المسيحية في القارة السوداء ، وهو مايجب أن نعرفه ، لأننا ما زلنا نخطيء في فهم الزنوج ونتصور أنهم أصبحوا مسيحيين كبقية المسيحيين في البلاد الأخرى ، وربما نتصور أن الزنجي المسلم هو الذي بقي عنده بعض العادات والأعتقادات الوثنية ولم يتخلص منها ، وأن الزنجي المسيحي أصبح انساناً آخر ، والمقارنة تعطينا الصورة الواضحة لحقيقة الزنجي ، وبضدّها تتميز الأشياء •

فالمؤلف يحدثنا عن نشوء حركة التبشير مع ظهور البعثات الأستكشافية وظهور الأستعمار في القرن التاسع عشر ، وهو العصر الذهبي للتبشير • ويذكر تاريخ البعثات في أول أمرها وما لاقته من المصاعب والمخاطر والأهوال ، وفشلها في عملها لأنها لم تفهم نفسية الزنجي • ثم تطور التبشير بعد أن أعانته الدول الأستعمارية وعلماء الأنسان وعلماء الأجتماع وغيرهم على فهم نفسية الزنجي وطريقة التغلغل في نفسيته ومعتقداته لتوجيهه الجهة التي يريدونها ، وبذلك أهتموا بفتح المدارس الكهنوتية لتخريج القسس والكهنة والأساقفه من الزنوج حتى يدركوا ان

الكنيسة ليست احتكاراً للجنس الأبيض وحده •

ثم يعدد المؤلف الدول الأوربية المستعمرة والطوائف المسيحية التي تعاونت على نشر المسيحية ، حتى جاء القرن العشرون وأستعمروا القارة كلها ، وأصبحت المسيحية ثابتة في أفريقيا السوداء ، وبنيت الكنائس في كل مكان وترجموا الأنجيل والأدعية الى لغات القبائل الكبيرة العدد جميعها ، عدا ترجمته الى لغات المستعمرين أنفسهم ، وكانت هذه التراجم من أهم العوامل على نشر المسيحية بين الزنوج • وليتنا نتنبه الى هذه الحقيقة !!

* * *

ثم يسأل المؤلف نفسه : من هو الزنجي المسيحي ؟

ويقول(٤٧) : كثيراً ماحامت الشبهة حول مدى تأثر الزنجي المسيحي بالمسيحية ، وعمق شعوره بها ، بل تعدته الى التشكك في صحة عقيدته وايمانه بها جملة • فقد لوحظ أن الزنجي المسيحي كثيراً مايخالف تعاليم المسيحية ومنهم من سلك سلوكاً وثنياً ، ومنهم من يخلط بين المسيحية والوثنية خلطاً عجيباً •

ثم يتحدث عن أثر المسيحية في الزنوج وحيرتهم بينها وبين معتقداتهم القديمة ، لأن المبشرين عمدوا على تحريم تعدد الزوجات وعبادة الأسلاف ونحر القرابين والأعتقاد بالسحر وحلقات تلقين الأسرار الكهنوتية الوثنية وختان البنين والبنات وغيرها •

ثم يناقش ما حل بالزنجي من أثر هذه الأمور وهذا المسخ ، حديث

---

(٤٧) المصدر السابق ص ١٧٤

عالم نفسي دقيق ، ويخلص الى أن الزنجي أصبح حائراً ، وقد أستولت الفوضى والبلبلة على عقله ، فتجده حائراً بين عالمين مشتتاً بينهما ، وبذلك يقع فريسة سهلة لكل دعوة جديدة •

وكان من نتائج هذه الحيرة والتميز العنصري وشعور الزنجي بسيطرة الأستعمار بعد أن وعى وأدرك وتثقف ، أن أثمرت عقائد ملفقة يتغلب عنصر النفسية والعادات الأفريقية على المبادئ المسيحية حتى طبعتها بطابعها ومنها :

١ ـ ظهور الكنائس المستقلة الخاصة بالسود ، وهذا رد فعل بسبب التمييز العنصري •

٢ ـ ظهور المتنبئين ـ أدعياء النبوة ـ من الزنوج وتأسيس كنائس خاصة ، لهم في تعاليمها شيء من الأبتكار وأختلاط شديد بالوثنية •

٣ ـ ظهور العبادات الجديدة ، وهي محاولة تجديد الوثنية عن طريق استيحاء المسيحية وتعاليم السحر والقوى الخفية •

(٤٨) وبذلك أصبح السيد المسيح في نظر معظم أتباع دعاة النبوة ، تارة ملكاً ، وتارة يهملون ذكره ، لأن المتنبيء قد حل محله بينهم • ويعتقد بعض السود في مسيح ملون مثلهم يسكن السماء ويقف على باب الجنة •••

وبهذه الوسيلة ثأر الزنوج لأنفسهم من التمييز العنصري للجنس الأبيض ، كرد فعل ضد نفوذ البعوث التبشيرية والسلطات الأدارية ، وهي محاولة من أهالي البلاد لبناء وحدتهم من جديد والعودة الى تماسكهم

---

(٤٨) المصدر السابق ص ١٨٠

الأجتماعي الذي هدمه الرجل الأبيض ، ومن هنا نشأت دعوة [أفريقيا للأفريقيين] •

وهكذا كان المؤلف منصفاً موضوعياً دقيقاً في بحثه العلمي ، مجرداً من التعصب أو التحامل على الزنوج وغيرهم • وهذا هو أسلوب الأنسان المجرد من كل غرض الا خدمة الحقيقة وتوعية الناس ، كل الناس ، على اختلاف مذاهبهم وعقائدهم وأجناسهم ، لأن الحقيقة نور يفتح العيون ويهدي الناس الى الخير •

ثم يختم المؤلف كتابه بخاتمة صريحة كل الصراحة ، وعلينا ان نقف عندها ونتأملها بكل عناية لنعلم مايدور حولنا في الخفاء ، وقد جاء فيها :

[(٤٩) كان كسبُ الأسلام لأقوام جديدة وراء مناطقه العريضة في الشمال والشرق رائعاً حقاً ، وكانت وسائله اليها اللغات الواسعة الأنتشار في التفاهم وهي لغات قبائل الأولوف ، والبيل ، والماندانج ، والهوزا ، والسواحيليين وكذلك كانت للتجارة التي تنقلها القوافل شأن مهم •

وأما المسيحية فقد رسخت أقدامها على الساحل الجنوبي وثبتت أصولها فيه ، (وهي تتقدم منه للقاء الأسلام وجهاً لوجه لتعترض زحفه الى الجنوب) وليت القارىء يتأمل ويتدبر هذه العبارة !!

(٥٠) ثم يسأل المؤلف بعد هذا :

تُرى أيهما ينتصر ؟ الأسلام الشرقي أم المسيحية الغربية ؟

ويقول : يتنبأ البعض بأن مصائر أفريقيا كلها تتوقف على مايتضمنه

---

(٤٩) المصدر السابق ص ١٩٠

(٥٠) المصدر السابق ص ١٩٠

جواب هذا السؤال • الا أن المسألة بهذا الوضع فيها أستهانة بطرافة ألعقلية ألأفريقية بدليل ظهور الطوائف المستحدثة ذات ألتعاليم المختلطة ، وطوائف المتنبئين ، التي أثبتت أن الوثنية القديمة لم تنقرض بل ماتزال باقية تُبدّل وتحوّل طبيعة كل شيء تمسّه يدها ، ويتبين من ذلك أن أمثل الطرق أزاءها هو تلقيحها بالتدخل فيها والتمشي معها •]

هذا السؤال علينا نحن المسلمين ان نجيب عنه ، وقد علمناحالة الزنوج المسلمين ومدى تغلغل الأسلام فيهم ، واللغة العربية ـ لغة القرآن تكاد تكون معدومة بينهم ، وهي صعبة شاقة جداً على أبنائها أنفسهم ، ولهؤلاء الزنوج لغات عديدة ، والأستعمار الغربي واقف لنا بالمرصاد ، ليضع لنا سدّاً نقف عنده ولانتعداه ، وهو الذي يريد أن يتقدم ويزحف نحونا بشتى الوسائل وقد ترجم رجاله المبشرون الأنجيل الى معظم لغات القبائل •

فلماذا لانعي وندرك ونتدبر ونجتهد وندرس حالة الزنوج وغيرهم من عباد الله المسلمين ، ونترجم القرآن الكريم دستور الأسلام والمسلمين الى اللغات التي يتكلمون بها ويفهمونها ، ولو كانت الفرنسية والأنكليزية والبرتغالية أو غيرها ، وهي اللغات الشائعة المعروفة لديهم ويتكلمونها ويتفاهمون بها ، وكلها ألسنة بشر خلقهم الله مثلنا ومنحهم ما منحنا ؟
والآية الكريمة تقول :

◉ ومن آياته خلقُ السماواتِ والأرضِ وأختلافُ ألسنتِكم وألوانِكم ان في ذلك لآَياتٍ للعالِمين •

وفيها تنبيه وحث العالمين بخاصة ، على الشعور بمسؤولياتهم وواجباتهم في ادراك ما في هذه الآية من معان قد لايحصيها عدد •

وهذه الدول الأسلامية في القارة السوداء مازالت متخلفة عن ركب الحضارة ـ وان كانت قد تخلصت من قبضة الأستعمار ـ ورؤساؤها وقادتها لايعرفون العربية ، وأذا اجتمعوا في المؤتمرات الأسلامية تكلموا بلغة المستعمر لا باللغة ألعربية ، فما حال ألأنسان العادي ؟

أفلا يحق لنا أن ننادي بأعلى أصواتنا بوجوب ترجمة القرآن الى لغاتهم ليكون لهم الدليل الهادي الى الخير ؟

وهذه الدول لايمكن أن تنمو وتزدهر ما لم يكن لها دستور يطهر المعتقدات من الأساطير والخرافات ، ويضع في العقول والقلوب صورة الأنسان الذي خلقه الله وكوّنه أحسن تكوين وجعله خليفة في أرضه ليؤمن ويفكر ويتعلم ويعمل ويشيد الحضارة الجديدة •

وبذلك نجيب عن سؤال هذا العالم :

أيهما ينتصر الأسلام الشرقي أم المسيحية الغربية ؟؟؟

المراجع

١ ـ الابطال ـ توماس كارلايل • ترجمة محمد السباعي
المطبعة المصرية بالازهر ـ الطبعة الثالثة ١٩٣٠

٢ ـ الانسان ذلك المجهول ـ الكسيس كاريل
تعريب : شفيق اسعد فريد • منشورات مكتبة المعارف ـ بيروت

٣ ـ الانسان في المرآة ـ كلايد كلوكهون • ترجمة الدكتور شاكر مصطفى سليم •
مؤسسة فرنكلن للطباعة والنشر ١٩٦٥

٤ ـ التربية لعالم حائر ـ سير رتشرد لفنجستون • ترجمة وديع الضبع
مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨

٥ ـ التفسير الواضح للشيخ ـ محمد محمود حجازي ، دار الكتاب العربي بمصر ـ الطبعة الثالثة

٦ ـ ثورة الزنوج ـ لويس ي ـ لوماكس
ترجمة أبراهيم عبود ـ دمشق ١٩٦٢

٧ ـ جبروت العقل ـ جلبرت هايت • ترجمة فؤاد صروف
دار الثقافة ـ بيروت

٨ ـ جوامع الكلم ـ الدكتور غوستاف لوبون • تعريب أحمد فتحي زغلول ـ مطبعة المعارف ـ مصر ١٩١٤

٩ ـ جواهر البخاري وشرح القسطلاني ـ مصطفى محمود عمارة •
الطبعة السابعة

١٠ ـ دعائم السلام ـ ادوارد هالت كار • ترجمة محمد فريد ابو حديد
من سلسلة كتب الفكر الحديث • لجنة التاليف والترجمة والنشر

١١ ـ دفاع عن العلم ـ البيربابيه • ترجمة الدكتور عثمان امين
من سلسلة نفائس الفلسفة الغربية • دار احياء الكتب
العربية ١٩٤٦

١٢ ـ الديانات في افريقيا السوداء ـ هوبير ديشان • ترجمة احمد صادق
حمدي من سلسلة الالف كتاب عدد ٥٢ دار الكاتب المصري
١٩٥٦

١٣ ـ ذم الهوى ـ عبدالرحمن بن الجوزي • تحقيق مصطفى عبدالواحد
مراجعة محمد الغزالي • الطبعة الاولى ١٩٦٢

١٤ ـ روض الاخيار المنتخب من ربيع الابرار ـ الشيخ محمد بن قاسم
بن يعقوب مطبعة وادي النيل المصرية ١٢٩٢ هـ

١٥ ـ رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ـ محي الدين ابو زكريا
يحيى بن شرف النووي الشافعي • مكتبة ابن النيل

١٦ ـ عش مائة عام ـ الدكتور جايلورد هاورز
من سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال ١٩٥٤

١٧ ـ عقلك مفتاح الفرص •و•ج • انيفر
تعريب : شفيق اسعد فريد • منشورات مكتبة المعارف
بيروت •

١٨ ـ العقل الناضج ـ هـ•أ• اوفر ستريت •
ترجمة الدكتور عبدالعزيز القوصي والسيد محمد عثمان

١٩ ـ علم أصول الفقهوخلاصة التشريع الاسلامي ـ عبدالوهاب خلاف•
الطبعة الثالثة ١٩٤٧ • مطبعة النصر ـ القاهرة

٢٠ ـ العلم يدعو ألى الايمان ـأـ كريسي موريسون • ترجمة محمد
صالح الفلكي مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٤

٢١ ـ القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد ـ محمد بن علي الشوكاني
صححه الشيخ محمد منير • مطبعة المعاهد بالقاهرة
١٣٤٠ هـ

٢٢ ـ محاورات رينان الفلسفية ـ أرنست رينان • ترجمة علي ادهم
دار العصور للطبع والنشر ـ مصر ١٩٢٩

٢٣ ـ المعجم المفهرس لالفاظ القران الكريم ـ محمد فؤاد عبدالباقي •
مكتبة وهبة ودار الكتب الحديثة ١٣٧٨ هـ

٢٤ ـ مغامرات العقل • مجموعةمقالات من مجلة ذي ساتر داي ايفننج
يوست The Saturday Evening Post
تقديم جون كوبلر وجماعته
ترجمة الدكتور محمد فياض • مطبعة عيتاني الجديدة •
بيروت ١٩٦٢

٢٥ ـ مقدمة ابن خلدون ـ المطبعة البهية ـ مصر •

٢٦ ـ منشأ الفكر الحديث ـ الدكتور كرين برنتون
ترجمة عبدالرحمن مراد ـ مطبعة المفيد الجديدة دمشق

٢٧ ـ الموسوعة العربية الميسرة ـ بأشراف الدكتور محمد شفيق غربال
دار القلم ـ مؤسسة فرنكلن للطباعة والنشر ١٩٦٥

٢٨ ـ نهج البلاغة ـ مجموعة مااختاره الشريف الرضي من كلام امير
المؤمنين علي بن ابي طالب
شرحه الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده
حققه محمد محي الدين عبدالحميد
مطبعة الاستقامة ـ مصر

المجـــلات

١ ـ أخبار اليوم القاهرية ٠ العدد ١٥٠٤ أيلول ١٩٧٣

٢ ـ مجلة العربي الكويتية عدد ٢٠٤ تشرين الثاني ١٩٧٥

٣ ـ مجلة الكتاب ٠ تصدر عن دار المعارف بمصر ٠

عدد يناير ١٩٤٦ ٠ السنة الاولى الجزء الثالث ص ٢٦٤

٤ ـ مجلة تايم الامريكية ٢٣٠ اذار ١٩٨١

Time - March 23 - 1981

الفهرس

كتب المؤلف

١ ـ معلم القرية

٢ ـ البيت والمدرسة

٣ ـ الطرق العملية لتدريس اللغة العربية

٤ ـ شاعر المنارة : مَخْلَد بن بكّار الموصلي ٠

٥ ـ الاديب والالتزام ٠

٦ ـ انسان الحضارة في القران الكريم

٧ ـ اللهجة الموصلية ومعجم الكلمات الفصيحة والكلمات الفارسية ـ مخطوط

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد (٨٦٢) لسنة ١٩٨٢

٣٧٨ / ١٠٠٠
١٥ ـ ٥ ـ ١٩٨٢

الثمن – دينار واحد